احمد فارس الشدياق
وقصيدتان مخطوطتان له

بقلم علي حيدر النجاري

* * *

في الجزء الاول من المجلد الثامن لمجلة « اللسان العربي » التي يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب التابع لجامعة الدول العربية في الرباط بالمغرب ، مقال هام للاستاذ محمد جميل بيهم بعنوان : (اعلام اللغة — احمد فارس الشدياق) انحى فيه باللائمة على الاقطار العربية وعلى لبنان بوجه خاص للتغاضي عن ذكر احد ائمة اللغة العربية في العصر الحديث . ويرى الاستاذ بيهم انه بكتابته المقال يلقي عن عاتقه عبء التكريم اذ عدد فيه مآثر الشدياق اللغوية وفضله على النهضة الادبية الحديثة للعالم العربي .

ذلك انه سنة الف وتسعمائة وست وثلاثين تنادى لفيف من كتاب لبنان للاحتفال بذكرى الشدياق وبايعاز من الكاتب الكبير مارون عبود (١٨٨٥ — ١٩٦٢) في اقامة يوبيل خمسيني ، فعامئذ — ١٩٣٦ — يكون قد مضى نصف قرن على وفاة العلامة صاحب الموضوع ، واختار المجتمعون وفدا مؤلفا من : محمد جميل بيهم ، الشيخ يوسف زكريا ، كرم ملحم كرم ، يوسف يزبك ، ليمثلهم في مقابلة رئيس الجمهورية اميل اده ، يعرضون عليه المشروع وتتبناه الحكومة فتدعو رجالات الاقطار العربية للمشاركة في الاحتفال ، وقد احالهم الرئيس على وزير المعارف آنذاك الاستاذ حبيب ابو شهلا (ت ١٩٥٧) لعلمه ودرايته في مثل هذه الامور . بيد انه مضت شهور وانقضت سنون دون ان يتحقق المهرجان ، فكانت صرخة الاستاذ عبود مدوية لهذا الفشل ، اطلقها منددا بلبنان في اهماله تكريم احد عباقرته وذلك في مقدمة كتابه : « صقر لبنان » الشدياق .

هذا ما اورده الاستاذ الجليل محمد جميل بيهم في المجلة المذكورة ، وهو يخشى ان لا يمتد به الاجل كما لم يمتد بصاحب الفكرة — مارون عبود — دون ان يكرم العلامة الشدياق ، لذا فالاستاذ بيهم القى — كما قلنا — عن كاهله المسؤولية وبادر الى كتابة كلمة عن الشدياق .

نذكر ان ثمة كتبا الفت عن ذلك العالم اللغوي ، والكاتب القدير ، والشاعر البليغ ، والصحفي الاول ... الى آخر ما اسبغ عليه من اوصاف . نذكر بولس مسعد في كتابه : « فارس الشدياق » ، مارون عبود : « صقر لبنان » — الشدياق — ، محمد عبد الغني حسن : « احمد فارس الشدياق » ، ميخائيل صوايا : « احمد فارس الشدياق » .

وانعقدت له فصول طوال في مؤلفات كل من جرجي زيدان : « مشاهير الشرق » ، حسن السندوبي : « اعيان البيان » ، مارون عبود : « رواد النهضة الحديثة » ، انيس المقدسي : « الفنون الادبية واعلامها » ، عمر الدسوقي : « في الادب الحديث » وغيرهم .

ورغم جميع ما ذكرنا لم يتعد هذا الى مستوى الجماهير العربية المتعلمة ، فالامام اللغوي — الشدياق — ، مجهول لدى الكثرة الغالبة من المثقفين ، وفي التقرير الذي تقدمت به لجنة التربية اللبنانية الى وزارتها عام ١٩٦٨ طالبت بادراج الشدياق ضمن مناهج القسم الادبي للبكالوريا اللبنانية(1) .

هذا في بلد المنشأ — لبنان — ، اما في غيره من البلدان العربية فليس من ذكر له في المناهج الثانوية ، ويرد اسمه في اشارات عابرة ضمن مقررات الكليات الادبية للجامعات العربية رغم خطورته واهميته .

وكان لكاتب هذه السطور شرف التنويه بجهوده في ميدان المصطلحات العلمية للغة العربية وذلك ضمن مقال في مجلة « المعرفة » الدمشقية حيث ساهمت مع العلامة الشهابي والاستاذ السلاوي في ابداء الراي حول التدريس العلمي الجامعي في اللغة العربية في العدد الثامن والخمسين لعام ١٩٦٦ . ثم في مجلة « العربي » الكويتية بعنوان : « مصطفى الشهابي » في العدد الثامن والثلاثين بعد المائة باعتبار الشدياق رائدا لاستاذنا الراحل — الشهابي — في المسميات العلمية للغة العربية . ثم ايضا في « العربي » في مقال لنا عن العلامة صلاح الدين الكواكبي حيث مهدنا بمحاولات جرت في القرن الماضي لايجاد مسميات علمية ومنها محاولة الشدياق .

ولد الشدياق في عشقوت — لبنان — عام ١٨٠٥ ونشأ شغوفا بقراءة الكتب ونسخها ، ولبراعته في النساخة استدعاه الامير حيدر الشهابي لكتابة تاريخه المشهور ذي الكتب الثلاثة : « الغرر الحسان في تواريخ حوادث الزمان » و « الروض النضير في ولاية الامير بشير » و « نزهة الزمان في تاريخ جبل لبنان » .

وكان شقيقه اسعد الشدياق يكبره بسبع سنوات وهو من تلاميذ عين ورقة التي نشأ فيها فارس ايضا ، وكان يجيد السريانية والعربية واللاتينية والايطالية والمنطق واللاهوت والطبيعيات والخطابة وحدثت نكبة هذا الاخ حين « مال الى المرسلين الامريكان واعتنق مذهبهم ، فثارت ثائرة البطريرك — فؤاد حبيش — عليه فاضطهده وعذبه وأمر بسجنه في مكان منفرد ، ثم اطلق سراحه بعد توسط من اسرة الشدياق ومن اعيان الطائفة ، ثم عاد يتعقبه حتى

---

(1) مجلة المعلم العربي كانون الاول ١٩٦٩ .

اعيد الى السجن حيث وافته منيته عام ١٨٣٠ بعد ان قاسى انواع العذاب »(٢) .

وكان لهذا الاضطهاد الاثر الاكبر في حياة فارس الشدياق مما الجاه الى الفرار والاتجاه نحو مصر عام ١٨٢٥ خلال سجن اخيه وتعذيبه . وفي مصر اقبل على التهام كتب اللغة والنحو والشعر والادب واشركه رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣) في تحرير الوقائع المصرية ثم استدعي الى مالطة فاقام فيها اربعة عشر عاما حيث الف وطبع كتابه « الواسطة في احوال مالطة » الطبعة الاولى عام ١٨٣٤ وترجم فيها كتاب « طبائع الحيوان » حيث استحدث فيه بعض المسميات ، ثم كتابه « خبرية اسعد الشدياق »(٣) وبعض الكتب المدرسية في قواعد النحو العربي ، ومختارات ادبية ، وكتابين في نحو اللغتين الفرنسية والانكليزية .

وفي سنة ١٨٤٨ استدعي من جمعية ترجمة الاسفار المقدسة الى انكلترا فلبى الدعوة واقام ثماني سنوات انتقل في فترة منها الى باريس وفي العاصمة الفرنسية الف وطبع كتابه المشهور « الساق على الساق فيما هو الفارياق » ورغم ما تخلله من عبث ومجون ، فيه بوادر القصة العربية الحديثة بنثر مرسل في اغلبه .

وفي باريس التقى بباي تونس احمد باشا حيث دعاه الى بلده ، وفي تونس اعلن اسلامه وسمي « احمد فارس » وطبع كتابه : « كشف المخبا عن فنون اوروبا » ويقول فيه الاستاذ محمد عبد الغني حسن : « ويعد هو وكتاب مالطة من امتع كتب الرحلات في الادب الحديث وادقها وصفا وابعدها عن الملل »(٤) .

واخيرا ! ... حط رحاله في الآستانة وبها اكتمل نبوغه ، وعظمت شهرته ، فاسس اول جريدة عربية فيها « الجوائب » عام ١٨٦٠ « وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد في الكتابة العربية حيث جمعت بين السياسة والادب بشتى ضروبه وابوابه بما في ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فذاعت واقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ولم تدع بلدا عربيا بل اسلاميا الا ودخلته »(٥) . وكانت جريدة « التيمس » اللندنية تطلق عليها آنئذ لقب « نور الشرق »(٦) .

وفي الآستانة كانت له المؤلفات النفيسة في اللغة العربية وفقهها : « الجاسوس على القاموس » طبع الجوائب ويقع في ٦٩٠ صفحة ويعتبر الشدياق فيه كشارح وناقد ولغوي واول من نزع ثوب العصمة اللغوية عن صاحب القاموس المحيط مجد الدين الفيروز آبادي ، لكان

(٢) اعلام العرب : احمد فارس الشدياق لمحمد عبد الغني حسن .

(٣) للمعلم العلامة بطرس البستاني (١٨١٩ — ١٨٨٣) كتاب عنوانه : سيرة اسعد الشدياق .

(٤) اعلام العرب : احمد فارس الشدياق . محمد عبد الغني حسن .

(٥) في الادب الحديث الجزء الاول لعمر الدسوقي .

(٦) جريدة الجوائب ايلول ١٨٨٣ .

الشدياق يرى ان اي اديب متمكن من اللغة وقواعدها ، يستطيع النظر في بعض معاجم اللغة العربية ونقد اصحابها ، فهؤلاء لا يخرجون عن كونهم بشرا يخطئون ويضلون في بعض الاحايين .

ثم الف في الآستانة كتابه « سر الليال في القلب والابدال » وهو جزءان لا يزال الثاني مخطوطا وتبلغ صفحاته ٦٠٩(٧) . ومؤلفه المخطوط الذي احترق والذي وردت فقرات منه في كتبه ومقالاته وعنوانه « منتهى العجب في خصائص لغة العرب » .

وفي الكتابين المطبوعين يقول الوالد رسول النجاري (١٨٤٩ — ١٩١٩) وقد زامل الشدياق وركن اليه هذا في الفترة الاخيرة من حياته — كما سنذكر — يقول الوالد :

قاموس فضل ومجد الدين دان له ... اذ اتقن اللغة الحسناء محتسبا
بيان «جاسوسه» شمس النهار كما ... «سر اللياليه» سناه المشتري كسبا
يـا حبذا اصمعي العصر في لغة ... يروي عن العرب العرباء ما عزبا(٨)

وقبيل وفاته زار مصر بدعوة من الخديوي توفيق حيث استقبله رسميا ثم عاد الى الآستانة ولم يلبث ان توفي فيها ، في ايلول — سبتمبر — عام ١٨٨٧ ونقل جثمانه الى لبنان ودفن في احتفال مهيب في قرية الحدث . ولقد رثاه فريق كبير من الشعراء والادباء وعلى راسهم شاعر العصر محمود سامي البارودي (١٨٤٠ — ١٩٠٤) .

قصيدتان مخطوطتان للشدياق

لمحة عن المرسل اليه

قصيدتان بخط يد احمد فارس الشدياق بعث بهما الى الوالد المرحوم رسول النجاري في مناسبتين مختلفتين سناتي على ذكرهما بعد ان نعرف القارىء الباحث على الشخص المرسل اليه وهو والدي الكريم واقدم له بما يلي :

سنة الف وتسعمائة واثنتين وثلاثين كنت في اليفاعة وكثيرا ما كانت تراودني احلام اليقظة ففكرت في اصدار جريدة اسلامية يكون لها الانتشار الكبير في العالم الاسلامي ! . وارسلت الى العلامة المرحوم الامير شكيب ارسلان ١٨٦٩ — ١٩٤٦ ارجوه الكتابة فأجابني في صفحتين يعتذر ويصف حالة المسلمين بالتقاعس حيال الاعمال النافعة وختم كتابه بقوله :

« ووالدكم المرحوم الشيخ رسول النجاري كان يحرر في الجوائب وكنت اقرا كتابته فيها وانا في الرابعة عشرة من العمر واسمه مشهور ، وفضله مذكور ، رحمه الله وجعلكم نعم الخلف وزادكم علما وآتاكم في الحق حكمة » .

وكان الوالد في صباه شغوفا بقراءة الكتب الادبية واستظهارها ، والحت به الرغبة في السفر الى القاهرة

(٧) الشدياق — محمد عبد الغني حسن ص ١٩٥ .

(٨) من قصيدة للوالد رسول النجاري يمدح بها الشدياق وقد وردت في كتابه المخطوط (الجواهر الغالية الاثمان في الرحلة الى دار خلافة آل عثمان) .

فذهب اليها ودخل الجامع الازهر وتخرج منه ، ثم عاد الى مسقط راسه حمص ولم يلبث ان ضاق به بلده بعد زيارة طويلة تام بها الى دمشق حيث نشأت بينه وبين الشيخين طاهر الجزائري (١٨٥٢ — ١٩٢٠) ومحمد المبارك صداقة وطيدة تخللتها مراسلات ومطارحات ادبية وشعرية ما زلت احتفظ ببعضها .

ثم شد الرحال الى الآستانة مهبط الطامحين آنذاك وفيها تعرف على نزلائها من رجالات العرب مادحا ومساجلا، وعلم به الشدياق فاسلمه قيادة ابنه الوحيد « سليم » في تحرير الجوائب وتصحيح مطبوعاتها خلال السنوات السبع الاخيرة من حياتها ، اذ اعتزل الشدياق الاب ادارتها بعد ان ناهز الثمانين . وقد هجر الوالد الجوائب قبيل احتجابها لخلاف بينه وبين صاحبها ، واخذ يكتب القصائد والمقامات في الجريدتين العربيتين اللتين كانتا تصدران في الآستانة : « الاعتدال » لصاحبها احمد قدري المترجم العربي لدى السلطان ، و « الانسان » لصاحبها حسن حسني بك والطويراني باشا فيما بعد(٩) بالاضافة الى جريدة « البيان »(١٠) في القاهرة و « التقدم » في بيروت وغيرهما .

وفي نحو ١٨٨٥ انتسب الى السلك العدلي وانصرف اليه خلال فترات كانت تعاوده فيها قريحته الشعرية ، فيبعث بقصيدة او ابيات الى رئيس او صديق . ثم تقاعد في حلب الشهباء وكان مدعيا عاما لدى محكمتها الاستئنافية، وعاد في اوائل سنة ١٩١٤ الى الآستانة فور احالته على التقاعد وكان من معارفه فيها الشيخ عبد العزيز جاويش ودخلت تركيا الحرب فعاد الى مسقط راسه حمص ومات في اواخر عام ١٩١٩ فقيرا مغمورا .

القصيدة الاولى المخطوطة

يحتم علينا واجب الادب قبل ايراد هذه القصيدة ان ننوه في لمحة خاطفة بالشدياق شاعرا بعد ان نوهنا به عالما لغويا وكاتبا وصحافيا .

يقول الاستاذ محمد عبد الغني حسن : « ويروي زيدان في تراجمه ان له ديوان شعر من نظمه يشتمل على اثنين وعشرين الف بيت ويذكر المؤرخ طرازي — ١٨٦٥ — ١٩٥٦ — هذا الخبر ولكن يصف هذا الديوان المخطوط بانه كبير الحجم بحيث انه اعظم من كتاب الجاسوس»(١١).

ويرى اديب الشام الكبير الاستاذ شفيق جبري في احدى افتتاحياته في مجلة المجمع اللغوي بدمشق(١٢) بمقال خاص عن عباس محمود العقاد . ان شخصين في الادب العربي الحديث استطاعا ان يبرزا في الكتابة وفي الشعر : الشدياق والعقاد .

اما الفقيد العلامة الاستاذ انيس المقدسي فيختم فصله القيم بقوله : « والذي يبدو لنا ان الشدياق كاتب متفنن وعالم مدقق ، اما في ميدان الشعر فانه مقصر عن المجيدين في زمانه من امثال الشيخ ناصيف اليازجي وطبقته ولعلنا اذا اهتدينا الى ديوانه نرى فيه ما يحملنا على تعديل راينا في فنه الشعري »(١٣) .

ويتحدث الاستاذ ميخائيل صوايا عن : « الشدياق والشعر » فيقول : « لكن لا بد من نعت الشدياق بالشاعر اللبق اذا خرج من نطاق المدح الى الغزل او الى المزاح » ثم يورد بعض النماذج من ابياته ويختم هذا الفصل بقوله : « ذا هو الشدياق الشاعر ، وهو دون الشدياق الناثر . فالناثر مبدع ممتع والشاعر مقلد في اكثر ما نظم »(١٤) .

ويرى الشاعر الاديب الدكتور احمد زكي ابو شادي (١٨٩٢ — ١٩٥٥) ان الشدياق اول من قال الشعر المرسل في العصر الحديث وليس عبد الرحمن شكري واخوانه من مؤسسي المدرسة الشعرية الجديدة(١٥) .

حتى ان الدكتور محمد خلف‌الله يعزو تجديد الشعر العربي الى الشدياق(١٦) .

وفي هذه القصيدة المخطوطة وفيها روح الدعابة التي اشتهر بها الشدياق ، بعض الضوء نلقيه على راي كل من المرحوم ابي شادي والدكتور خلف‌الله .

اما مناسبتها فيقول الوالد المرحوم في كتاب مخطوط له عنوانه : « الجواهر الغالية الاثمان في الرحلة الى دار خلافة آل عثمان » وقد انتهى من كتابته على ما يبدو جوالي عام ١٨٨٥ ، وانا لنورد كلامه بالحرف الواحد حرصا على الامانة العلمية وليستشف الباحث منه ما عسى ان يراه :

« وكتب لي — اي الشدياق — وكنت دعيت الى الطعام ، عند بعض الطغام ، بواسطة صديق لا يمكنني ان امتنع عنه او احتجب ، ولم يسعني الا اجابته ومن دعي فليجب ، غير عالم بما قدر وقسم ، بارىء النسم ؛ لان تلك الاكلة عافانا الله دخلت في بطني كالسم فاعتراني بلا امهال ، وجع البطن والاسهال ، ولذلك جاء بما سيذكر من القريض ، وجاء به وانا مريض ، متعللا عن عيادتي بعلة طبيعية ممن عمر وامل ، اذ يشيب المرء وتشيب فيه خصلتان الحرص وطول الامل ، فقال ، وابدع بالمقال :

لا ارى ان اراك والكف صفر لا ولا ان انساك ذلك عذر

---

(٩) للتعريف بهذا الكاتب الصحافي الشاعر (١٨٥٠ — ١٨٩٧) يراجع : « اعلام من الشرق والغرب » لمحمد عبد الغني حسن . القاهرة مطبعة الاعتماد ١٩٤٩ .

(١٠) لصاحبها يوسف شيث وصدر بعدها في القاهرة البيان للبرقوقي والبيان للعلامة ابراهيم اليازجي .

(١١) احمد فارس الشدياق لمحمد عبد الغني حسن ص ١٩٨ .

(١٢) مجلة المجمع اللغوي الجزء الثاني المجلد السابع والاربعون نيسان ١٩٧٢ .

(١٣) الفنون الادبية واعلامها لانيس المقدسي .

(١٤) اعلام الفكر العربي : احمد فارس الشدياق لميخائيل صوايا .

(١٥) هذا ما جاء في الرسالة التي تقدم بها الاستاذ نشأت كمال الى جامعة عين شمس لنيل الدكتوراه عام ١٩٦١ وموضوعها احمد زكي ابو شادي .

(١٦) الفنون الادبية واعلامها ص ١٨٠ .

المغامر .. وحصاة الغدير

وكـل نهـار تجـيء الينـا   توقـع خطـوا بـروح المغامر
وتلقـم قـاع الغديـر حصيـا   وتطفو على السطح هذي الدوائر
وتمضي وتتـرك ألـف سؤال   يعربد خلـف مئـات الحناجر
ويومض مـن جانب السطور برق   يشـد اليـه جميـع البصائر
وذات صبـاح توقـف سـير   الزمان واقفـر هـذا المكـان
وكـل المنارات يـا سيـدي   توارت وفي الارض مـات الحنان
وهـذي الزوارق قـد ابحرت   اترجـع قبـل فـوات الاوان
وقبـل اعتيادنا هـذا الغياب   اتبلـغ يـا قلب شـط الامان
غدا حين ترجع تلـك العيون   ويثقـل سمعي هديـر السؤال
وتلغـط فينـا جميـع الشفاه   ويكثـر في وفيـك المقـال
وتسكن مـلء اهابـي طيوف   وتحملنـي عربـات الخيـال
سأذكـر عينيـك يـا سيدي   واعرف انـي طلبت المحـال

دمشق

سلافة العامري

فانبـت الـيراع عنـي وباسـم الله ادعـو ان لا يمسك ضـر
لعنـت اكلـة تلاهـا زحـير   وطـيـب وشـغـل بـال وحصر
اتحـرت لـك المقاديـر اسوا   لا بديـل التسهيل اذ انت حـر
ام راك الزمان جلـدا عليـه   فـراى انـه عليـك يسـر
ان يضق عن اذاه صدرك وهـو الرحب فليتسع لبـرء يسر
فعسى ان يكون في الضر نفع   وعسى ان يكون في العسر يسر
لم يضع من عمر الفتى ما هداه   سبـلا للنجـاة ممـا يضـر»

القصيدة المخطوطة الثانية

اما هذه فرغم انها اقرب الى شعر المناسبات فهي تعطي الباحث مجالا لدراسة عن شخصية الشاعر وعما تنطوي عليه جوانحه خلال الفترة الاخيرة من حياته ، ولعلها من اواخر اشعاره .

والابيات كانت ردا على رسالة شعرية بعث بها الوالد الى الشدياق متشوقا بعد أن حل ضيفا على احد علماء الصوفية آنذاك وهو الشيخ محمد ظافر الشاذلي صاحب كتاب « الانوار القدسية » المطبوع في مطبعة الجوائب ، ويبدو انه كان شيخا للسلطان عبد الحميد قبل ان يتولى الشيخ ابو الهدى الصيادي (١٨٤٩ — ١٩٠٩) هذه المشيخة ، ونورد ابيات رسالة الوالد الشعرية اتصالا بالبحث ، واتماما للفائدة :

سر يا كتابي لخدن العلم والادب   ومن به تضرب الامثال في الكتب
واشرح صحيح غرامي المستجاد له   وانشر حديث «الرسول» غير مضطرب
شوقي لانس اديب مفرد علـم   بالعلم والفضل يستعلي على الرتب
آنست منه سنا انس هديت به   بعد البعاد لاقصى القصد والارب
لـذاك فارقته والعـين في عبـر   والقلب في حرق والجسم في حرب
عنـه انطلقت ولكن مهجتي اسرت   لديـه والقلب يدعوني ان انقلب
مع انني بؤت بالفضل الجزيل لدى   حمى الامام الهمام الطيب الحسب
اعني به «الظافر» المفضال شيخ مليكنا المعظم في الدنيا مـدى الحقب
فهذه حالتي في الحب قـد ظهرت   فكيف حالك لي « يا فارس» العرب
وحق فضلك في ذا القطر لست ارى   سواك من فاضل ارضاه مصطحبي
كم لامني عاذل في فرط حبك لـي   ورام منصرفي عنكـم ومنقلبـي
ومن اراد اصطحابي عنك قلت له   شتان بـين ذكي فاضل وغبـي
لله درك مـن صبر سما ونما   في نظمه الدر فوق الزهر والشهب
سحبان ليس بحسبان لديك لـه   سبحان باريـك للانشاد والخطب
ومـا نظـام جريـر مـع فرزدقه   بل بامرىء القيس لو قسناك لم نصب
امـا نظرنا تاليفا لـك انتشرت   مـن كل سفر بديع جاء بالعجب
فزادك الله عمرا يـا منى املي   ودمت بدرا بافق المجد لـم يغب
قلدتني يـا امام الشعر والادب   مدحا لغير حلاك الغر لـم يجب
فانـنـي رجـل رام الخمول فمـا   له سواه وغير الصدق من ارب
ان كنت انظم شعرا فهو لي داب   لا للحصول علـى جاه ولا رتب
وان يكن طاب ذكري في مديحك لي   فانما هو مع تذكار ذي الحسب
محمـد ظافر مـن انـت منتسب   الـى حمايته يـا طيـب منتسب
من يعتصم بحماه فهـو ذو جدة   وحظوة وأمان مـن اذى النوب
فكل مـا قلت فيه عـن مكارمه   فصدقه ظاهر كالصدق في الخطب
وانمـا كـان تاخيري مديحكما   للعجز مـع انـه سولي ومطلبي
دم يا «الرسول» المعالي تستبين لنا   من معجزات المعاني زينة الكتب
لانت فخر لنـا والناس تعلم ذا   وليس ينكـره الا عـم وغبـي
ولا تؤاخذ شيخا بالقصور عـن الاطراء فهـو اسير الهـم والوصب

حمص

علي حيدر النجاري



توأم الفردوس

انشدت في مهرجان وطني
اقامته الجاليتان السورية واللبنانية

زكـي قنصـل

*

حتـام اخنـق غصاتي وانتظـر   طـال الطريق واوهى عزمي السفر
جارت علي النوى واستنزفت كبدي   فكيـف يضحك في قيثارتي وتـر ؟
انـى التفت رايت الافق معتكرا   افي سمائـي ام في مقلتي الكـدر ؟
ويح الغريب لكـم اغرته بارقة   وكـم تنازعـه التطواف والسهر
يعيش في ظلمات مـن هواجسه   بالله هـل يستريح الواجف الوجر ؟
نهـاره عـرق بالليـل متصـل   وليلـه سقـر في اثـره سقـر
يغفـو تهدهده الاحـلام زاهيـة   ويستفيق فـلا يبقى لهـا اثـر
اضاع في الكدح والتذكار غربتـه   فمات حيـا .. وكـم في موته عبر

يا شام لولا طلاب المجد ما انتثرت   في الشرق والغرب هذي الانجم الزهر
نـادى فطاروا اليـه لا يروعهم   مـا يضمر الغيب او ما يعلن القدر
لم تسع ، حيث سعت اقدامهم ، قدم   ولا تسامى الـى آفاقهـم نظـر
كرمى لعينك مـا يلقون من خطر   مـا هان الا علـى محرابك الخطر
يا شام باسمك كم غنوا وكم هزجوا   ويعلم الله كـم انـوا وكـم زفروا
شادوا على ملكوت الحب دولتهم   فاخضوضلت وحـلا للقاطف الثمر
تبارك الحب كـم راجت تجارته   وكـم ترفع عمـن باسمه اتجروا
لـم يهجروك ، برغم البعد ، ثانية   شتان شتان من غابوا ومن هجروا

لانـت خفقة وجـد في جوانحهم   تخبـو النجوم ولا تنفـك تستعر
فجاء يـا توأم الفردوس دونكها   تحيـة بعبيـر الشـوق تأتـزر
واحر قلبي كـم اصبو اليك وكم   اطوي جناحي علـى نار ولا شرر
اهوى ترابك تبرا لا يقاس بـه   تبـر . وكيف يقاس التبر والمدر ؟
اهوى سماءك صـاغ الله انجمها   شقرا.. واحلى الدراري الانجم الشقر
واها على جدول في المنحنى هـذر   نشوان يسكر منـه البلبل الهذر
مياهه فضـة تجري علـى ذهب   مـن زان قاعك بالابريز يـا نهر ؟
الكوثـر الطاهر الرقراق والـده   فـلا يطاولـه في الانهار مفتخـر

واها علـى قريـة بالافق عالقة   يزينهـا الفاتنان : الـدل والخفر
لا هـم يشغلها ، لا غـم يدخلها   مـا دام يملؤها الايمان والسمر
تمسكـت بحبـال الله واعتصمت   بالطود يزلق عـن هاماته البصر

كانها — والدجى يغشى نوافذها — ... سفينة تتراءى ثم تستتر
واها على ربوة بالحسن كاسية ... يزهو على كل عشب عشبها النضر
ترتادها الطير اسرابا ويقصدها ... من المجانين او ليلاتهم زمر
للصيف في ظلها الريان منتجع ... وللشتاء ومن يشتون مؤتمر
واها ... وماذا تفيد الواه مغتربا ... يكاد يفلت من راحاته العمر
اخاف — والشوق يطويني وينشرني ... يقضي المشوق ولا يقضى له وطر

قالوا ولبنان هل تنساه ؟ قلت لهم ... هيهات ينسى ليالي عزه الوتر !
لي فيه الف اخ طابت شمائله ... والف اخت هم الاطياب والزهر
فكيف ياخذني في حبه حذر ... ان المحبة من آفاتها الحذر
ذكرت ماضيك يا لبنان فائتلقت ... في خاطري صور ، واستيقظت صور
هذي سرايا العلى من شطك انطلقت ... تغزو بايمانها الدنيا فتنتصر
لم تحمل النير للاعناق ، بل حملت ... رسالة النور فاستهدى بها البشر
حرية الفكر قد ارست قواعدها ... ايام ترسف في اغلالها الفكر
بيروت عاصمة التاريخ ما برحت ... للشرع مدرسة تزهو بها العصر
ياوي الى ظلها الباكي فتحضنه ... وينكث العهد راجيها فتغتفر

تراث فينيقيا صانت ذخائره ... ولم تفرط بما قد خلفت مضر
ما عزت الضاد الا في حمايتها ... هل يضحك الحقل ان لم يسقه المطر ؟
شمس الحضارة من آفاقها سطعت ... ان كان من غيرها قد اشرق القمر
طارت على صهوات الريح شهرتها ... ولا يزال اسمها ينمو وينتشر
لبنان يا درة الشرقين ان يدا ... تمتد صوبك بالعدوان تنكسر
لم تعرف الشمس اعلى منك ناحية ... فداء مجدك ، مهما عزت ، الدرر
الله حاميك من غاز ومن جشع ... فليعصف الهول ، فالعقبى لمن صبروا

الناس عندك اخوان ، احبهم ... لله اسرعهم للعفو ان قدروا
ما للضغينة في جنبيك متسع ... ولا مكان لمن ان عاهدوا غدروا
حدث وحدث بما استنبطت من بدع ... ان الكرام اذا ذكرتهم ذكروا
باسم المحبة خضت البحر من قدم ... وباسمها سار في اعقابك الظفر
الادعياء على ميراثك اجتمعوا ... فازجرهم بسياط الحق ينزجروا
ان فاخروك بماض من مآثرهم ... فانت مبتدأ الدنيا وهم خبر
وان تباهوا بما خطوا وما نحتوا ... فالحرف منك ، ومنك الفكر والحجر
بعثت قدموس استاذا فعلمهم ... لولاه ما كان شيء اسمه حضر
بنى العقول بلا من وهذبها ... ان الكريم ليعطي ثم يعتذر

يا جيرة الارز ان الارز رايتكم ... فلا يلم به ضيم ولا وضر
ابلى الزمان وما زالت ملابسه ... خضراء يسكر من انفاسها السحر
هياكل الرب شيدت من اضالعه ... فليخشعن على اقدامه الشجر
اني لاسمع فخر الدين يامركم ... بالذود عن حرمات الدار فائتمروا
فيئوا الى نهجه — يسلم لكم وطن ... وامشوا على دربه تحمد لكم سير
لانتم اسرة في الله واحدة ... فكذبوا قول هاذ انكم اسر
وانتم الفئة الصغرى ، وكم فئة ... كبرى مؤزرة لم يجدها الكبر
ماضيكم مشرق ، فلينره حاضركم ... ان الشبول من الآساد تنحدر !

بوانس ايرس — الارجنتين

زكي قنصل

قبلة طفل

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي

الاستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة

* * *

قرات قصة مترجمة عن الاسبانية تتحدث عن مجرم شرس ينزل سجنا قاسيا اعد لمثله ، وكان من الشراسة والجفوة والبطش بحيث اعجز الحراس ، وتحاماه زملاؤه الاشرار من اصحاب الجرائم الفظيعة ، وكان مدير السجن عنيفا يتخذ افظع اساليب الردع ناظرا الى عملائه كذوي خطر شديد لا يستجيبون لخير ، حتى ضجر بــه القاطنون ، واخذوا اهبتهم المتيقظة للفتك به ، وكان يسكن في مبنى خاص ملاصق للسجن . وله بنت صغيرة في العاشرة من عمرها ، بحث عنها ذات صباح فلم يجدها بالمنزل ، فتوقع الشر ، وذهب في هياج ليجدها تداعب هذا الشرير الضخم وتبتسم له في لطف ، ويحدثها في حنان ، فحمد الله ان نجت من شره ، واخذ يعنفها ان تركت المنزل وجاءت الى مكان هذا المفترس الوحش ، فقالت الطفلة : ليس وحشا يا ابي فقد قبلته كما اقبلك ، وكتم المدير غيظه فلم ينطق ، وبعد ايام فوجيء بعصابة قوية من نزلاء السجن تهجم عليه في شراسة ، وتوقع الموت اذ كان دون سلاح وحراس ، ولكنه وجد هذا الشرير الخطير يهجم على افراد العصابة ، ويقاوم وحده شرها خائضا اقسى المعارك حتى تفرقت عنه بعد ان امتلأ جسده بالجراح وسال الدم من راسه ووجهه ، وقد سئل عن سبب الدفاع عن رجل يؤذيه ويكرهه فقال ، لقد قبلتني ابنته ذات يوم ، وهي الوحيدة التي قبلتني ، وحرام ان تعيش يتيمة !

ذكرت هذه القصة حين سمعت ما يشبهها مما حدث واقعا دون تأليف ، سمعت فعجبت ، وعرفت ان الطبائع الانسانية تتقارب في كل زمان ومكان ! وان قبلة الطفلة الصغيرة او الطفل الصغير علاج سحري يرد اعتى العتاة من المتوحشين انسانا رقيق الحس ، عميق الشعور . اما كيف كان ذلك فاليك :

نزلت احدى مدن الصعيد مدرسا ، وامتدت سنوات التدريس هناك فالفت الناس والفوني ، وصادقت الكثيرين من ذوي النفوس الكريمة ، والاخلاق الرضية ، عرفت فيمن عرفت انسانا فاضلا حقا ، يتحدث في ادب . ويعيش في نظافة ، ويقرا في اهتمام ، وله بشاشة مفرطة مــع الزائرين ، وترحيب طيب بالوافدين ، وكان يميل الــى القراءة فهو يطالع الكتب والمجلات ويشارك في مسائل الثقافة وتيارات السياسة ، مع صمت حلو يخيل اليك معه انه حديث ناطق تقوم فيه الاشارة مقام العبارة ويغني الصمت عن اللفظ ، على هيام زائد بكتب التاريخ الاسلامي قديمها وحديثها ، حتى لتسمع منه اخبارا قراها في الطبري والمسعودي وابن الاثير لم تقرأها من قبل ، ولم تكن موضع ملاحظة كاتب معاصر ممــن يملئون كراسي التاريــخ في الجامعات ؟ ولا ادري لمــاذا اختصني بوده دون زملائي بالمدرسة ، فهو يدعوهم من اجلي ، واذا حاولت التهرب من كرمه المفرط غضب واهتاج ، وقد عرفت ان هذا ديدنه قديما مع الاساتذة الوافدين ، يرتاح الى احاديثهم ، ويعقد معهم مجالس الشعر والثقافة ! وهو بعد عصامي الاطلاع لم يتخرج في جامعة وانما قرا وشغف ، واهتم بفنون من القراءة تناسب مشربه ومزاجه ، حتى صار ذا رأي تستمع اليه فتستريح .

والناس لا يتركون انسانا دون كلام ، وان نزل من السماء ، فلا بد ان يحسد هذا الفاضل على كرمه وعلمه ، ولا بد ان يأتي الينا في المدرسة الثانوية من يقول عنه انه ورث مالا عن ابيه القاتل السفاح ، وان ما ورث لم يكن حلالا خالصا ، ولكنه انتزع غصبا من الناس ، خوفا من شراسة الوالد ومؤامرته . وان الصلة به لا تحمد ، وبخاصة من رجال التربية والتعليم ، ويستمع الزملاء الى الحديث بين مصدق ومكذب ثم يقول قائلهم نحن غرباء ، ولنا موضع القدرة بين العامة ، فلا بد ان نتحفظ فلا نزور احدا مهما الح في طلب الزيارة ، ومنهم الانطوائي بطبعه ، الذي كان يرى العزلة مذهبه ، فيجد لتعسه عذرا في الانطواء ، ويتباهى بمسلكه المتجنب ، ويدل ببعد نظره وسعة تنكيره ! وهكذا اصبح الاتصال بالرجل المفضال موضع مؤاخذة ، ولم تبدر منه بادرة سوء بل لم يبدر منه غير الحميد من القول ، والحسن من الفعل ، وكل ما قيل من الاراجيف يتعلق بأبيه وقد مات منذ عشر سنوات ، ولكنه لا بد ان يؤاخذ على كرمه وادبه ، ولا بد ان تزر وازرة وزر اخرى .

وتحفظ الزملاء فلم يعودوا يخفون اليه ، وارادت لي الظروف ان اتحفظ بعض الشيء فلا اسرف في الزيارة كما لا اجاهر بالقطيعة ، وقد عرف الصديق بفراسته حقيقة ما كان ، فلم يشأ ان يقطع الحبل معي ، ولكنه جعل الصراحة ديدنه ، فخف الى المدرسة ليقول انه سيزورني في منزلي ، وكانت العادة ان يقول انه يدعوني الى زيارته في منزله ، وقد حدد الساعة بعد العشاء فوجب ان انتظر ، ولم يخاطب الزملاء بشيء فخيل اليهم انهم استراحوا من عبء متوهم ، ولكني والله قد فرحت بموعده ، واخذت انتظره على شوق .

صلينا العشاء معا بالمنزل ، وخيل الي ان الزيارة ستكون صلة للمودة دون ان تمس ما جد عليها من وهن ؛ ولكن الرجل قد جاء ليتحدث فيما ظن ، وكان ظنه صادقا ، وكان طبيعيا فلم يفتعل تمهيدا ، ولم يختلق مناسبة يأتي معها القول استطرادا وكأنه لم يتعمد ، بل قال لي في

ابتسام ؛ سأسمعك قصة والدي : قلت في تجاهل : وهل لوالدك قصة ؟ قال نعم وقد جاءتك مجوفة مكبرة فيجب ان تقف على حجمها الطبيعي ! فتراجعت ابتسم في خجل - وانطلق يقول :

اخذ والدي في قضية ثار ، كان يرى من شرفه ان ينتقم . ورات الحكومة ان يسجن ، وقد قضى ما كتب عليه في السجن ، ثم خرج ليجد الناس يعاملونه كسجين وقع في قبضة العدالة وكوفىء بالاشغال الشاقة ، فضاق امامه باب الرزق ، واضطر لان يلجه من غير طريقه ، وعرف عنه ذلك لمدى قصير ، حيث انقذه الله من ناحية لم تكن في حسابه ، اذ جاءه ذات مساء عم غادر يقوم وصيا على ابن اخيه الوحيد الذي يمتلك ثمانين فدانا ، وقد سولت له نفسه ان يقوم بمؤامرة تنزع الحياة من طفل بريء لا يتجاوز العاشرة كي يصبح هو الوارث الشرعي لما يملك ، وكان خبيثا في كيده ، ماهرا في حيلته ، فعرض على والدي ان يخطف الطفل ، وحدد له البيت والساعة والشارع ، اذ ان الضحية يتيمة لا تجد من يقف معها غير ام محطمة لا تملك ادوات الدفاع ! ثم يرسل له خطابا خادعا يطلب منه عشرة آلاف جنيه فدية ، ويكون الخطاب بالبريد ، فيظهر استعداده امام الناس لدفعها ، ويجمعها بالفعل متصنعا الجد ، وباحثا عن المكان والموعد ، ثم يفاجأ بجثة الطفل ملقاة في مصرف مائي حدده كذلك ، واذ ذاك يعلم الناس انه بعيد عن الجريمة ، وانه بذل الجهد في البحث ، واسرع في جمع الفدية ، ثم تدخل القدر على غير ما يريد ، وقد قدم لوالدي خمسمائة جنيه ووعده بمثلها بعد تمام المكيدة ، وماذا سيضيره حين يخسر الف جنيه وهي ثمن فدان واحد مما سيصبح ملكا خالصا له ، وكان والدي لا يجد المال الا عن طريق الجريمة مستجيبا لوسوسة الشيطان وسيطرته ، فاستجاب .

حان موعد التنفيذ في منتصف ليلة شديدة الظلام بالريف ، وقد وقف العم ليدل ابي على الباب الخلفي وليرسم له طريق الذهاب الى مضجع الطفل الراقد جوار والدته المريضة ، وكان يظن ان الامر لا يستغرق عدة دقائق ، فالام وحيدة عزلاء ، والطفل لا يستطيع المقاومة ، والظلام ساتر سابغ ، ولكن ابي يدخل فيجد الطفل مستيقظا تغني له والدته ، وقد اسرع الطفل حين ابصر القادم فجاة وهو يصيح بابا بابا بابا جه يا ماما اذ توهمه اباه الغائب — كما كانت توهمه امه — لبعض ملامح رآها الصغير مشابهة للراحل البعيد ، وقد فرست الام ووقعت مغمى عليها لما تاكدته من هول الواقع المنتظر ، اما ابي فنظر الى الطفل يسرع اليه وهو يقول بابا فحمله في رفق بين يديه فوجد الطفل يقبله فرحا وهو يصيح : بابا ! حبيبي ! فارتعشت يده ، وادركه من الحنان والرحمة ما دفع بالدمع الى عينه . فلم يتمالك ان اخذ يقبله في حب ؛ ثم اتجه الى السيدة المغمى عليها ليرش وجهها بالماء ، وليساعدها على الانتعاش حتى اذا عاد لها الرشد - جلس في ادب خاشع ليقول لها في حب : انا خادمك يا سيدتي ، وقد اوعز لي المجرم ان اقتل وحيدك ، ولكن الله قد بعث في قلبي له حبا يدفعني الى ان اقاوم الجبابرة دون حياته ، سأفضح المجرم غدا في الطريق امام الناس ، وسأهدده بقتل اولاده جميعا لو اصاب طفلك السوء ! سيعلم من انا ؟ وقد كتب الله على يدي له النجاة ، وكان الام كانت تحس البغض الدفين في نفس العم ، وترى انها في مهب الخطر فاندفعت تبكي بحرقة وقالت انه استولى على الارض ولا يدفع لنا غير ايراد فدان او فدانين ثم يدعي ان المحصول كله في نفقة الام والطفل ، وقد تساهلت ورضيت بالكفاف لاضمن حياة الطفل حتى يشب ! واذا كنت قد رحمتني فلا آمن ان يسلط علي سواك ! صاح الوالد في حماسة : سأهدده بخطف جميع اولاده ، وسيكون امامي اضعف من ذبابة ، وسترين .

ذهب العم الى المنزل مترقبا ان يسمع صراخ الام ، وفزعها الهلوع حين تعلن اختطاف الطفل ، ولكن الليل يمضي دون ضجة ، فيظنها نائمة لم تدر ما الفاجعة ؟ حتى اذا بدت الشمس ، سمع العم ما افزعه ، سمع ابي ينادي الناس في الشارع العام ، ليقول لجماهيرهم المحتشدة ، ان هذا الوغد قد سعى الي بليل ، لاختطف ابن اخيه واقتله وارميه في المصرف المائي ، ووالله الذي لا رب سواه ، لقد اعلنت على رؤوسكم جميعا حمايتي للطفل البريء ، ولئن مسه اي خطر فسأخطف اولاد الوغد جميعا ، وان لم يكن انا الخاطف فسأتعاهد مع من يخطف ويقتل ، ليشعر بالحسرة الكاوية ، ثم انهي المأساة براسه ! لقد اعلنت حمايتي ، ومعي كل اصدقائي نشترك في صد هذا الوغد ! كان بالامس في قريتنا ، وقابلني ، ومر ببعض من شاهدوه ، ممن استدل بشهادتهم الآن امام الشرطة ليفضحوه ! لن يقف احد ما دون حمايتي لهذا البريء ولامه ! سأنتزع الارض منه وسيرى !

بهت الناس لهول ما راوا ، ولم يستطع العم ان ينكر ، فقد اذهله الموقف بمفاجآته ، وجاء التهديد بخطف اولاده الثلاثة واحدا واحدا زلزالا مدمرا لاعصابه ، وقد استعاد بعض ثيابه فهرع الى مقر الشرطة مسترحما يستعين بالضابط ، ولكنه كان ذا فراسة صادقة فازدراه وقال له ان القانون لا يحمي المتآمرين ، وزاد في تحطيم اعصابه فقال : لقد وقعت في يد اخطر العصابات ، فليست المسألة مسألة فرد ، فوراءه من هو اخطر منه ، والمجرمون ياكل بعضهم بعضا ، فاستعد لما سيقع ، فلا سلطة لنا الآن على غريمك ، وقد صد شرك عن ابن اخيك ! ثم قال في استدراج : اذا كنت بريئا فاسأل ربك العون فهو نصير الضعفاء !

وما كاد العم يصل الى منزله حتى راى صراخ زوجته ، وفزعها الهائل ، تقول له : عرضت نفسك للفضيحة ، واولادك للقتل ، وقد نهيتك فلم تسمع ! كنت تدبر ، وكنت

أبوان

شمسان نورتا نفسي مدى الامد … فانزاح عن افقي سرب من الكبد
اغدو ، وفي القلب افراح اعانقها … مثل السناء الذي ينساب في عضدي
قد كنت زهرا يضوع العطر من فمه … كاعين عطفها قد زاد في جلدي
لولاكما كان عيشي غير مؤتلق … اكرم بعيش بدا كالنجم بين يدي
بشر الابوة انى سرت يغمرني … يزجى الي مع الاحلام ثوب غدي
والود ، ود التي بالروح تطعمني … سر الحياة . ومن اغلى من الولد ؟
رؤياي تشرب من كاسيكما المـا … يطفو على ظاهري المغموس في الكمد
اما عروقي ، فاوتار توقعها … انامل الحزن ، والاسقام في البلد
فكم صحاري لا ترتاح من ظما … مثل الجذى وقدها يختال في الرمد
وكم ورود رماها الياس ذابلة … لما الحمام ارتوى من نبعة الابد
لولا الابوة ما استلقى الضحى فرحا … بين الطفولة ، او في صحوة الخلد
يا والدي ، صنيع القلب يخبرني … عن انهر من حنان اثلجت كبدي
أرنو الى حسنها مستمرئا خلقا … يبقى الوجود به مستوثق العمد
آمنت بالحب اخلاقا ومركبة … تسمو النفوس بها عن شرعة العقد
هو اندفاق من الرحمن اودعه … قلب الامومة ، كالغفران للجسد !

مراكش — المغرب — ص.ب ٤٦١
آيت وارهام احمد بلحاج

اثنيك ، كانت الارض كلها معك فماذا كنت تريد ؟ ولم يتمالك ان ضربها بحدة ، فصرخت ، وجاء الناس ليسمعوا اعترافها بالجريمة ، فصدق المتشكك ، واطمان المستريب ، وتساقطت اللعنات عليه من اقرب القربى فما ظنك بالغرباء ؟

لم يقف والدي عند هذا الحد اذ استمع الى اشارة ام الطفل في ان يعمل على انتزاع الارض منه ، وقد رضيته قائما على زراعتها وانتاجها ليحميها من الناهبين ، وله نصف المحصول واكثر منه لو اراد ، فقد حفظ روح طفلها من السباع ولم يكن العم متصورا ان المعركة ستنتهي به الى ان يفقد وصايته الشرعية على الارض ، فعاند وتبجح ، ولكن والدي قد استعان بقوم من قريته بداوا يفدون الى منزل الام ، ويرسلون تهديداتهم الشريرة الى العم ، وكم ارسلوا الطلقات النارية فوق منزله في الظلام تهديدا له ، وانذارا بخطف اولاده لو وقف عقبة دون ان يسلم الارض لاهلها ، فانهارت اعصاب الزوجة ، وزاد الامر خطورة لدى العم ان احد هؤلاء قد استطاع ان يخطف الولد الصغير من بيت خاله ثم يقدمه الى والده قائلا لقد عفونا عنه هذه المرة وسترى ، حتى اضطربت نفسه ، ورأى الدنيا لا تساوي ان يعيش بها لحظة واحدة مع ما يواجه من تهديد الغرباء واحتقار المعارف وتباعد الاقرباء ، وقد فارقته زوجته معلنة كل ما بيت من شر ، ثم ارسلت تتوسل لمن يسمون بالغرباء ان يرحموا الاولاد ، ودونهم الاب فهو صاحب التدبير الاثيم .

وقبل ان يجمع المحصول ، سلم العم كل ما في حوزته ، وجاء ابي ليدير الارض بنفسه ، وليختار من يثق فيه من الفلاحين واذ ذاك اعلن توبته لله عز وجل اذ وجد باب الرزق الشريف ، وقد انهل الخير عليه كالمطر ، فام الطفل ترعى له حقه وتعطيه كل ما يطلب ، ومهما اعطت فقد سلم لها الدخل جميعه واصبحت مطلقة اليد فيما تنفق وتدخر وقد منحت اكثر دخلها لذوي الحاجة من الناس ، اذ كانت رحيمة القلب ، سخية اليد ، فضمنت محبة الجميع ، وشعر كل انسان ان ارضها الخصبة ثروة للفقير والضعيف .

زاد المال لدى ابي ، فاقتنى العقار ، وجمع الحيوان والماشية ، واقام المنازل ، ثم رحل الى ربه وقد ترك لي ما اتمتع به من ثراء ، اما الطفل الذي انقذه فهو الآن صاحب منصب مرموق ، وقد ورث الارض جميعها بعد وفاة والدته ، ولا يزال يزورني وازوره مقرا بفضل والدي عليه .

ثم سكت صاحبي ونظر الي لاتكلم فقلت ، يا اخي لم اشك في طهارتك لحظة ، وقد ورثت المال عن ابيك حلالا صافيا ، ولك خيره خالصا طاهرا ، فدع الحاسدين وما يهذون .

قال في اسف : ولكنهم يشوهون الحقائق ، وما اتصلت بقوم الا اشاعوا الاراجيف ، ونقموا على الموتى واقلقوا المضاجع ساخطين .

قلت وما يضيرك ؟ فلن يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وصدق الله العظيم .

القاهرة — كلية اللغة العربية
محمد رجب البيومي

العمل الفني

في ادب عصور الانحطاط

بقلم لطفية الشهابي

* * *

كثـرت التعليلات والتعليقات والدراسات حول ادب هذه العصور ـــ عصور الانحطاط ولكن وللاسف لا يكاد القارىء ، رغم كل هذه الكثرة ، يجد ما يشفي غليله ، وهو ما زال يحس انه بحاجة الى مزيد من القول ، لست ادري لماذا ؟ هل لان الاهمال ما زال من نصيب هذه الفترة ؟ ام لان طبيعة ادبها لا ترغب القارىء والدارس بالصحبة الطويلة له ؟ ام لاسباب اخرى غير هذه وتلك لا ندري . ولكن المهم بالنسبة الي هو انني اطلت مرافقته اكثر من اللازم حتى خشيت على نفسي من عدواه . الا ان هذه الصحبة بدأت فيما يظهر تكشف لي عن بعض مكنوناته وتظهر شيئا من اسباب علله وامراضه . فلقد احسست بصدق ان الاديب متى فقد القدرة على خلق المعاني او تمثلها من جديد ، ووضع امامه نماذج يريد ان يحتذيها ويسير علـى غرارها ، واولى اهتمامه الى القشور مغاليا في التلاعبات اللفظية والزينة الكلامية ، والصور سواء كانت جميلة او غير جميلة ، ضاعت معانيه تحت ركام النماذج القديمة المحطمة والصناعة اللفظية والمعنوية المشوهـة واختل في انتاجه عنصرا الموسيقى والعاطفة .

اجل لقد احسست ذلك بصدق وانا اديم النظر في شعر هذه الفترة بصورة خاصة . ولقد مللت التعليلات الطويلة للاسباب الخارجية المحيطة بالاديب والتي ادت الى تقهقر هذا الادب ، وبدأت ابحث عن الاسباب الداخلية وعن طبيعة العمل الفني كيف غدت في نفس الاديب حينذاك .

فالاديب هـو الانسان الذي منحه الله قدرة البيان ووهبه امكانية التعبير عن اشياء يحس بها جميع الناس ولكنهم لا يحسنون عرضها وتصويرها وبعـث الخطوط الموحية فيها كما يحسن ذلك الاديب . واذا فهنالك عوامل خارجية وداخلية تتعاون لدى كـل منشىء او صاحب موهبة ، على انتاج ما ينتج وابداع ما يبدع . انه يتأثر بالعوامل المحيطة به ويتفاعل ذلك التأثر مـع مشاعره الداخلية ومقدرته الفنية فيعكس لنا تأثره بطريقة مـن الطرق التعبيرية ان بالشعر او بالنثر . ويبدأ كل فنان حياته الفنية مقلدا كما هو شأن الانسان في كل ما يتعلمه ثم ينتقل من التقليد الى الابداع . واذا ما بقي في طور التقليد فذلك يعني انه بقي في طور الطفولة الفنية . وانه لم يمتلك الشخصية القوية والطموح الكافي اللذين يدفعانه الى الابداع والابتكار والاستقلال الفني عن سواه . ولو لم يمتلك ابو تمام ناحية غنه ويتمتع بأقصى قدر ممكن من الطموح لما سمعناه يقول :

يقـول مـن تطرق اسماعـه كـم تـرك الاول للآخـر

اما اديب عصور الانحطاط فقد رضي لنفسه ان يبقى مقلدا طوال حياته ، ولم يكد يشعر بالمهانة لقاء ذلك الرضى . بل ان نقاد تلك الفترة جعلوا لانفسهم مقياسا يقيسون به اجادة الاديب اذا استطاع ان يضمن في شعره شيئا من اشعار الاقدمين الجميلة . يقول كاتب مقدمة ديوان ابن النحاس(1) : « وانفس نفائسه تضمينه المشهور لمصراع الرئيس ابن سينا :

لا يدعـي قمـر لوجهك نسبة فاخـاف ان يسود وجـه المدعي
فالشمس لـو علمت بانك دونها « هبطت اليك معه المحل الارفع »

ان هـذا التضمين هو من محسنات ابن النحاس الاساسية في راي ناقده وجامع ديوانه ، وهذا يعني ان التقليد عندهم غدا عادة غير مذمومة ، بل بتعبير اصدق انها مرغوب فيها الى اقصى الدرجات . والا فكيف يسمح ابن نباته لنفسه بأن يرقع شعره ذلك الترقيع العجيب في كل قصائده . لم يكن هدف ابن نباته ان يخلق معنى جديدا ، ولا ان يستوعب بعمق المعنى القديم ويعكسه كما تعكس المرآة الصافية الصورة بكل جمالها ، او كما تعكس عدسة المصور الماهر اجمل لمحة للوجه الذي امامها ، فتخرج له صورة تمثله ولكنها تزيد عنه جمالا ، وانما كان هدفه ان يعكس فقط المعنى القديم ولو بدا مشوها كما تظهر صورة الانسان على صفحة الماء العكر المضطرب . هكذا ظهر لنا عمل ابن نباتة في هذا البيت مثلا :

يـا صاحبي اقـلا مـن ملامكما ولا تزيدا بهـذا اللـوم اغرائي

انه وضع امامه بيت ابي نواس :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هـي الداء

انه قد قلـد ابا نواس المبدع فجاء تقليده مسخا مشوها . ولست ادري كيف سمح لنفسه ان يستخدم شطرة ابي الطيب في هذا البيت :

يـا من يوفر طيفها سهري لقد امـن ازديارك في الدجى الرقباء

او شطرة ابي نواس في هذين البيتين :

وهائم بالجواري الخود قلبي من سحـر القـدود فسمراء ولمياء
من السراري التي من بعد موت اب « لـو مسها حجر مسته سراء »

ولنواصل تتبعه في اختطافه لشطرات متنوعة من شعر الاقدمين ، فها هو يلاحق ابا تمام :

يـا تالي الذكر كتبا في لواحظه « السيف اصدق انباء من الكتب »

والمتنبي :

مـدح يغار لمسود المداد بـه « حمر الحلى والمطايا والجلابيب »

---

(1) هو احد شعراء الفترة الاخيرة من عصر الانحطاط توفي سنة (١٠٥٢ هـ) حلبي الاصل له ديوان شعر مطبوع .

وابا فراس :

اذا زرتني فالروح والمال هين « وكل الذي فوق التراب تراب »

« فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والانام غضاب »

انه لم يكتف بشطرة واحدة من شعر ابي نواس فالحقها ببيت كامل . وهكذا الى آخر ما هنالك من ابيات لا تقع تحت عد كلها قد اقتطع لها اجزاء من اشعار الاقدمين ووصلها بشيء من كلماته فجاءت مهلهلة ضعيفة بعيدة كل البعد عن الجمال الذي نحسه قبل كل شيء في تلك الروح المبدعة التي يوحي بها انتاج الفنان المبتكر .

ان ابن نباتة وغيره من شعراء عصر الانحطاط لم يحاولوا ابداع معنى جديد ولا تمثل معنى قديم وانما اخذوا يحتذون تلك المعاني ويتلدونها فجاء انتاجهم مسخا مشوها لا روح فيه وذلك لان المعنى هو الروح .

وما كفاهم انهم اضعفوا روح فنهم بل التفتوا الى الشكل يبالغون في زركشته ظنا منهم ان ذلك سيغطي حقيقة فعلتهم ، لقد خيل لاديب عصر الانحطاط انه سيبلغ ذروة الفن ان استطاع ان يزين بيته بجناس او طباق او تورية او ترصيع او تصريع ... ولم لا يكون ذلك كذلك وهذا ابو تمام وذلك البحتري والمتنبي قد اكثروا جميعا من هذه الصناعة اللفظية ، ونسي صاحبنا ان اولئك قد ابدعوا وافتنوا في خلق معانيهم ثم حاولوا توشيتها ببعض الزينة ، وان زينتهم كانت ثمينة راقية كانها الماس والياقوت واللؤلؤ ، وما كان واحدهم ليرضى بقطعة زجاج حمراء فارغة او خضراء ملتمعة سريعة العطب . وانه بالاضافة الى كل ذلك فان قيمة عقودهم كانت تاتي من قيمة الصدور التي تزينها ، فهل لاحد منا ان يشعر بثقل الطباق الموجود في هذا البيت :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

انه مجموعة مقابلات تعرض الحياة بكل ما فيها وهل الحياة الا متناقضات ، والا اشخاص صغرت نفوسهم فاستعظمت كل صغير وآخرون عظمت نفوسهم فاحتقرت كل كبير .

وهل لنا ان نحس بثقل الصنعة في هذين البيتين :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

لقد بهرت مثل هذه الصناعة انظار ادباء عصور الانحطاط فظنوا ان الجمال كل الجمال نابع من خلالها فلم لا يكدسونها اكواما فوق اشعارهم ليضمنوا لها اكبر قسط من الفتنة . ونسوا ان المساحيق المتكاثفة على وجه المرأة القبيحة السطحية التفكير لا تزيدها الا قبحا وفراغا . وان اكداس الاساور والعقود الرخيصة في عنقها ويديها لا تثير في النفس الا الهزء والسخرية من عقلها الجاهل السخيف .

وهكذا راح شعراؤهم يبحثون عن الصناعة ايا كان نوعها فالمهم عندهم ان يأتوا بالصورة وان لم تؤد الغاية المرجوة ، حتى ولو كانت تحتوي على تناقض داخلي في ذاتها : فيقول ابن نباتة :

تولى من جمالهم ربيع فجاء بنوء اجفاني الشتاء

ويقول :

من بيتفضل صحيح الوزن قد رجحت به مفاخر آباء واجداد

فلا نرى جمالا في تلك الصورة الاولى المتناقضة مع نفسها والتي جعلت الشتاء ياتي بعد الربيع ، ولا في الصورة الثانية التي صرفت انتباهنا عن معنى المديح الى مجال الابحر العروضية . وهذا هو ابن النحاس يتغزل :

وما سمعت بالغصون قبلهم مشت بها اكثبة البوادي

فلا ارى اسمج من صورته ولا اكثر برودة ، فاي روعة نحسها حين نرى غصنا يمشي به كثيب كبير . صحيح انها الصورة الكاريكاتورية القديمة لمحبوبة الشاعر الجاهلي ، ولكن صاحبنا قد جردها حقا من كل جمال آخر وابقاها كما يريدها مصور الكاريكاتور تماما . ولنقرأ هذا البيت كذلك لابن نباتة :

تفاح خديه بقتلي شامت فلاجل ذا يلقاك وهو مخضب

واراني مضطرة الى الاسراع في القول بأن شاعر عصر الانحطاط ما كان ليعبر بصدق عن مشاعر يحسها وعواطف تعتلج في نفسه ، وانما كان يصطاد صورة من هنا وتشبيها من هناك ويلبسها لمعنى صادفه ، وليس لمعنى تمثل في نفسه ، ثم يأخذ بتزيين ذلك المعنى بالمحسنات اللفظية ، هذا اذا لم يكن قد اعد هذه المحسنات من قبل وجهد ليجد لها اجسام الابيات فيكسوها اياها .

وهذا لا يعني ان ادباء هذا العصر اصبحوا مجردين من المشاعر والاحساسات ، وانما يعني انهم اضاعوا ذلك كله بالخطة التي رسموها لانفسهم حين جعلوا من القديم نموذجا يحاكونه ويسعون للوصول اليه ، ولم يستقلوا بأنفسهم ويجعلوا من الماضي ضوءا للانارة وانما جعلوا منه خطة للمسير فرجعوا القهقرى وكان حالهم حال المقلد الذي لا يحاول الابداع . لقد غدوا مقيدين في تقليدهم ففقدوا شخصياتهم ومعالمهم الذاتية ، تلك المعالم التي هي اهم ما يجعلنا نحس بجمال انتاج الفنان وروعة ما يقول . ان كلف ذلك الاديب بالصنعة اللفظية الرخيصة كان ينسيه كل شيء ، انظروا الى ابن نباتة في قوله :

بابي هلال شرق طلعته يجري مدامعنا من الغرب

كسر اللواحظ ناصب فكري فغنيت بين الكسر والنصب

وسلبت لبي والحشا وجت فغنيت بالايجاب والسلب

كيف استماعي من حديثكم قشرا وعند معذبي لبي

ان الذي يسيطر على هذه الابيات هو مجموعة من الالفاظ المتطابقة المتقابلة . لقد حسب الشاعر انه بلغ ذروة الفن حين استطاع جمعها في ابياته ، ونسي ان الطباق وسيلة وليس غاية ، ولذا فقد استطار عقله فرحا حين حصل على محسنين في بيته الاخير وهما الطباق والتورية . وصاحبنا قد طارت شهرته في كلفه بالتورية . وهو القائل :

اودت فعالك يا اسما بالحشائي واحيرتي بين افعال واسماء

ولا اريد اطالة الوقفة عند المحسنات اللفظية لدى ادباء هذا العصر فلقد اشبعها الدارسون تدقيقا وتمحيصا .

اليوم عدت اليك

اتصدقين بانني اكتب ... ما كان ، قبل اليوم ، لا يكتب
أرجعت للينبوع رقته ... ورجعت من سلساله أشرب
اذنبت أم اذنبت ، لا أدري . ... من كان منا ، بعد ، لم يذنب
ما ضاق صدري الرحب من كبر ... الا لانك صدري الارحب !
ان كان لي عتب برمت به ، ... أعلى سواك ترين ان أعتب
أنسيت أني الحلم اذ أرضى ، ... وبأني الغفران اذ أغضب
واحرقتي من نفسي الولهى ، ... واشقوتي من قلبي الطيب
يا الطف الاحباب ، ما تعبت ... قيثارتي من عمري المتعب
الشعر ؟ كان الكأس مفرغة ، ... واليوم هذي كأسه تسكب
اترين ؟ عاد النجم موطنه ، ... والافق عاد لبوحه ملعب
ارسيت لي في الشعر مدرسة ... ان تنتسب ، فلرقتي تنسب
حملت قلبي ريشة نشوى ... رسمت دواوين الحلا والحب
لولا سطور كنت اكتبها ... لم يشق انسان ، ولم يطرب
العاشقون غدوا بغير غد ، ... لما شراعي ضيع المركب ،
فهربت من قدري الى قدري ، ... لم أبق ، بعدي ، متعة تنهب
اليوم عدت اليك . لا تسلي ... هل بعد لي من حبنا مهرب
ما ضاع منا لم يكن عمرا ، ... ايام ذاك العمر لا تحسب

فوزي عطوي

وانما كل ما اريد ان اقوله هو ان هذه الصناعة غدت غاية بعد ان كانت وسيلة ، ولذلك اساءت الى الادب ايما اساءة .

ونتيجة لكل ما سبق فقد كدنا نفتقد نهائيا عنصري الموسيقى والعاطفة في الانتاج الفني لهذه الفترة . ففقدان عنصر الموسيقى جعلنا نحس بالنثرية المتفشية في اشعارهم، بل رب نثر كان له من الايقاع اكثر مما نجد في شعر عصر الانحطاط . ان الازدواج والتوازن في كتابة الجاحظ كانا يمنحان اسلوبه غير قليل من الايقاع الجميل . الا ان النثرية او انعدام الموسيقى غدا ميزة واضحة في ادب عصر الانحطاط . فهذا ابن نباتة يقول :

لقد عذبت الفاظها وصفاتها ... على ان قلبي في هواها معذب
تجاسر عود اللهو يشبه صوتها ... فمن اجل هذا اصبح العود يضرب

ويقول :

انت الحبيب ولكني اعوذ به ... من ان اكون محبا غير محبوب
وحق تربة يحيى يا محمده ... لا غير الصدق مني صبر ايوب

فلا نحس بموسيقى الشعر ولا سيما حين ينتقل من شطرة الى اخرى ، ان هذه ليست الا نماذج قليلة لو اردت ان اكثر منها لما اتسع المجال لذلك .

اما العاطفة فهي العنصر المظلوم المغبون في هذا الشعر . والا فدلوني بربكم اين تحسون عاطفة الحب في هذين البيتين :

جائر الحكم قلبه في صخر ... وبكائي له بكا خنساء
عذلوني على هواه فاغروا ... فهواه نصب على الاغراء

واين عاطفة التعظيم والتقدير والاحترام للممدوح في هذه الابيات :

ملك حافظ المناقب تروي ... راحتاه عن واصل عن عطاء
في معاليه للمديح اجتماع ... كابي جاد في اجتماع الهجاء
اعربت ذكره مباني المعاني ... فعجبنا لمعرب ذي بناء

او ابيات اخرى يقول فيها :

قاضي القضاة اذا اعيى اورى فطنا ... حسيرة العين دون الباء والثاء
والمعتلي رتبا لم يفتخر بسوى ... اقدامه الراء قبل التاء والباء
والثاقب الفكر في غراء ينصبها ... لكل طالب نعمى نصب اغراء

لقد تبخرت العاطفة وذهبت بين ركام تلك الصنعة السطحية التي لم تقر جمالا في اللفظ ولم تبق على اثر للمعنى .

ان اديب عصر الانحطاط قد اخطأ المسير حين جعل القديم قبلته ونسي شخصيته الذاتية ، شان كل مهمل لذاته ، مبدد لكيانه ، فلم نعد نجد لادبه الطعم اللذيذ الذي كنا نجده في ادب الاقدمين ، ولا نرى الصورة المميزة له عن غيره من الأدباء ، الا في تلك الزخارف الباهتة التي زادته سطحية وفراغا .

لطفية الشهابي ... دمشق



الدكتور وليم الخازن

ملامح القومية

في الشعر العربي الحديث

بقلم الدكتور وليم الخازن

* * *

نمت بذور الشعر العربي القومي في القرن التاسع عشر مع ظهور الشعر الوطني . ولم تكن التيارات القومية التي فعلت فعلها في خريطة العالم الغربي قد دخلت البلاد العربية بشكل فعال . ولم يكن للعرب مكاسب قومية في القرن التاسع عشر الذي وصف بعصر الانجازات القومية . وفي مطلع القرن العشرين كانت الدول الغربية التي هنئت باستقلالها القومي تسعى لتخطي حدود القومية ، ولبناء الدولة السياسية الحديثة . اما القوميات الجديدة ، بما فيها القومية العربية المتحررة من السيطرة الاجنبية ، فكانت تتفتح في ربيع ايامها . والكتب العربية التي ارخت لهذه النزعات ، كثيرا ما شطحت مع عصبيتها وخيالها ، وحاولت ان تبني بناء شامخا بدماميك صغيرة متفرقة . ورأينا جورج انطونيوس ، وهو من اكثر المؤرخين العرب اعتدالا ، يقول في كتابه « يقظة العرب » ان فكرة الامة بمفهومها الحديث غزت البلاد العربية في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . ونحن نقبل قوله هذا ان كان يقصد فيه مجرد الفكرة العامة للقومية وتغلغلها الاولي ، اما شيوع فكرة القومية وانتشارها في القرن التاسع عشر ، وحتى في اواخره ، فلم يظهرها لنا فيما طالعناه من مراجع بهذا الشأن . ولقد اورد البرت حوراني في كتابه « الفكر العربي في عصر النهضة » ان الاعتقاد القومي لم يتضح ويكتسب قوة سياسية الا في القرن الحالي . مع العلم ان العرب لم يحرموا ادباء عرفوا مفاهيم القومية الحديثة وكتبوا عنها مثل اديب اسحق السوري (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥) الذي بحث في الامة والوطن والوطنية وحدد مفاهيمها ، غير ان هذه الابحاث لم تبلغ حد الانتشار الكافي . والدول التي تولت قسمة العالم في اتفاقيات ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ، اخذت قوميات الدول الغربية بعين الاعتبار وحددت هذه الدول بالنسبة لقومياتها ، فنالت حظها واطمأنت . اما الدول العربية ، فقد طبق عليها عكس ذلك ، اذ جارى المؤتمرون ومصالحهم وقسموا الاطار القومي العربي غير الواعي الى دول عديدة ، بقيت لديها المسألة القومية في مقدمة المساعي والمطالب الوطنية . وحيث اعطي غيرها حقه القومي حرمت هي قوميتها ، وما زالت تسعى لتحقيقها في افتراضات اتحادية شتى . وفي عام ١٩١٩ اخذ الشاعر خير الدين الزركلي ، شأن المواطنين الواعين ، ينبه العرب الى تصميم الغرب على تقسيم بلادهم ويقول :

اين العهود التي لم ترع والذمم   فيم الونى وديار الشام تقتسم
وقد رأيت حقوق العرب تهتضم   هل صح ما قيل من عهد ومن عدة

وعندما جاءت لجنة الاستفتاء العالمية عام ١٩١٩ تستطلع الحقائق عن الشرق العربي وتستفتي الشعوب في تقرير مصيرها وافرادها يضعون شعار الميزان على اعضادهم تطرق لها الزركلي وقال من قصيدة :

ما بال من حملت موازين الهدى   اعضادهم لم يحسنوا البرهانا
ان لم يغيثوا المستغيث وينصروا   مستنصرا فليكسروا الميزانا

وتصدى بعض الشعراء العرب للحكم الغربي الدخيل ، ووصفوا مساوئه في بلادهم كما نرى مثلا لدى الشاعر العراقي محمد رضا الشبيبي عام ١٩٢٠ ، والشاعر المصري احمد زكي ابي شادي (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) عام ١٩٢٣ ، اذ يقول في قصيدته « عيد المناحة » :

لا عاش في ارض الكنانة بان   ان هد امتها الغريب الجاني

ولدى مواطنه الشاعر مختار الوكيل ، عام ١٩٣٤ ، في قصيدة « الدخيل المعتدي » . وبعد هذا التاريخ تقض التقسيم مضاجع القوميين العرب فسنلقاهم ينددون به في كل مناسبة ، ويهاجمون فرنسا التي اقرته ، كما نرى

عند محمد الفراتي الذي قال عام ١٩٢١ من قصيدة :

ارثي لشعب قسمته لغاية ... ايدي المطامع فاستحال شعوبا
يا شعب يعرب كم تقاسي مرغما ... دون الشعوب من الهوان ضروبا
... يا ويح جلق من فرنسا انها ... شنت عليها غارة وحروبا
هتكت حرائرها نفت احرارها ... لم تبق شبانا هناك وشيبا .

طلائع القومية العربية

راينا اثر محمد علي باشا ومجاهرة ولده ابراهيم بعروبته ، وقد اطلق محمد علي على نفسه لقب : « سلطان العرب وخاقان البحرين » ، غير انه كان يسعى الى منفعة توسعية امبراطورية باءت بالفشل ، ولم يعاونه العرب باخلاص في سبيلها . وكان همه الاول ، وهو من اصل الباني ، كما كان هم ابنه ، السيطرة على العرب ، وحكمهم بشكل قريب من حكم العثمانيين . وكان اثر هذه الحركة ادنى الى تنبيه العرب وتفتحهم الوطني ، منه الى تسييرهم في الطريق القومي . اما حركة الوهابيين التي حارب من اجلها ووطد اركانها محمد بن سعود (... — ١٧٦٥) وابنه عبد العزيز (١٧٢٠ — ١٨٠٣) ، فقد كان شعارها اقامة المذهب الحنبلي ، وتوطيد الحكم السعودي في الجزيرة العربية . وظهرت قبل حركة الوهابيين وبعدها انتفاضات وثورات اتخذت حينا طابعا عربيا ، وحينا آخر طابعا دينيا ، ولم تكن من التأثير والشمول بما يجعلها تعتبر بدء طريق القومية العربيـــة .

ولم نر للشعر القومي اثرا يذكر قبل القسم الثاني من القرن التاسع عشر . اما قبل هذا التاريخ فكانت تلمح بروق قومية خلف ركام من الشعر الحماسي الذي عرفه العرب في عهودهم القديمة . وربما كان خير شاهد على هذا المظهر شعر عبد القادر الجزائري الذي ظهر بالجزائر في مرحلة كان الشعر فيها انطوائيا سلبيا يدعو الى العزلة والفرار من الواقع والهروب الى الصوامع والمساجد . وقد حاول الفرنسيون حجب العربية والعروبة عن اعين الجزائريين . وفي القسم الثاني من القرن الماضي ، اخذ الشعر العربي يتعدى اغراضه التقليدية . ولعل ولاية مدحت باشا على سورية (١٨٧٨ — ١٨٨٠) ساعدت على تفتح الافكار القومية . وكان ابرز شعر عربي قومي مستقل ، وربما اقدمه ، لابراهيم اليازجي وابن اخته نجيب الحداد ابتداء من عام ١٨٦٨ . ولا شك في ان كتابات اديب اسحق السوري اثرت في الجو العام الذي خرجت منه قصائد اليازجي وغيره .

ويتجلى للناظر في الشعر القومي العربي ان معظم رواده من المسيحيين . ومرد ذلك الى وهن ارتباط المسيحيين بالاتراك ، وضعف وشيجتهم بالجامعة العثمانية . ولا يعني هذا ان المسيحيين استأثروا آنذاك بالقومية العربية ، فقد شاركهم ببث افكارها الجديدة جماعة من المسلمين وعلى رأسهم عبد الرحمن الكواكبي الحلبي (١٨٢٥ — ١٩٠٢) . وقامت جمعيات تطالب بحقوق العرب ، وتبث الحمية في نفوسهم ، مسلمين ومسيحيين ، مثل جمعية « حفظ حقوق الملة العربية » التي نشأت عام ١٨٨١ ، وغيرها . ولكن يبقى للمسيحيين وتفتهم الفذة في هـذا المجال . وتجدر الاشارة الى ان دور ابراهيم اليازجي وغيره من شعراء هذه المرحلة لا يعدو كونه دورا اوليا يسجل لهم شرف الريادة القومية في الشعر ، ولم يتعد هذا الفضل ، فيحتل مرتبة الالتزام ، والعمل المثمر .

وفي اواخر القرن التاسع عشر ، ومطلع القـــرن العشرين ، راحت النزعة القومية تزيد بروزا في كتابات العرب ، فصدر عام ١٩٠٥ باللغة الفرنسية كتاب نجيب عازوري « يقظة الامة العربية » . وبعد ابتهاج العرب وتهليلهم للدستور العثماني عـــام ١٩٠٨ ، اصطدمـــوا بالسياسة الطورانية المبيتة ، فعرتهم خيبة أمل ، واحدثت في نفوسهم ردة فعل على جمعية « تركية الفتاة » العاملة للقومية التركية بتزمت يبيح سيطرة الجنس والعنصرية ، ويكفر بغيرهما من الروابط الانسانية بحيث ان الاتحاديين ما لبثوا ان حلوا « جمعية الاخاء العربي » التي باركوا انشاءها عام ١٩٠٨ في الآستانة ، فاضطر العرب للعمل بطرق سرية الى جانب الطرق العلنية ، فنشأت ، بين ١٩٠٩ و ١٩١٤ ، جمعيتان علنيتان هما « المنتدى الادبي » عـــام ١٩٠٩ و « حزب اللامركزية الادارية العثماني » عام ١٩١٢ . وثلاث جمعيات سرية هي « القحطانية » في اواخر عام ١٩٠٩ ، و « العربية الفتاة » عام ١٩١١ ، و « العهد » عام ١٩١٣ — ١٩١٤ . وردة الفعل ظاهرة في اسم الجمعيتين الاوليين منهما اللتيـــن تواجهان القومية التركية بما يقابلها من الانكفاء العربي .

وعلى اثر هذه التحولات في السياسة والفكر العربي ، وبعد المؤتمر العربي العام الذي عقده العرب في باريس عام ١٩١٣ وحددوا فيه مطالبهم القومية ، ظهر شعراء قوميون كبار نكتفي بذكر بعض من المشهورين منهم . فمن لبنان : امين ناصر الدين (١٨٧٥ — ١٩٥٣) ، وفؤاد الخطيـــب (١٨٨٠ — ١٩٥٧) ، والشاعـــر القـــروي (١٨٨٧ —) ، وابو الفضل الوليد (١٨٨٩ — ١٩٤١) ، والياس فرحات (١٨٩٣ — ١٩٧٧) . ومن سـورية : فارس الخوري (١٨٧٣ — ١٩٦٢) ، ومحمد البزم (١٨٨٧ — ١٩٥٥) ، وجميل مردم بك (١٨٩٠ — ١٩٥٤) ، وشفيق جبري (١٨٩٨ —) ، وبدر الدين حامد (١٩٠١ — ١٩٦١) ، وعمر ابو ريشة (١٩١٠ —) . ومن العراق : معروف الرصافي (١٨٧٥ — ١٩٤٥) ، ومحمد مهدي الجواهري (١٩٠٣ —) ، ومحمد رضا الشبيبي (١٨٨٩ — ١٩٦٥) . ومن مصر : احمد شوقي (١٨٦٨ — ١٩٣٢) ، وحافظ ابراهيم (١٨٧٢ — ١٩٣٢) ، واحمد محرم (١٨٧٧ —

١٩٤٥) . ولو حاولنا ان نذكر غيرهم من سائر البلاد العربية لبدا على كلامنا التعنت وشق النفس لان زعامة الشعر القومي انحصرت في شعراء من لبنان وسورية والعراق ومصر . اما سائر الاقطار العربية ، فكان يخيم على بعضها تاخر فكري وحضاري بفعل انعزالها وطريقة عيشها البدائي ، وعلى بعضها الآخر حكم اجنبي مطبق .

وربما كان الاستمرار العربي بتونس اثبت وجودا ببقاء جامعي الزيتونة والقيروان اللذين شابه اثرهما في تونس اثر الجامع الازهر في مصر . ومن الشعراء البارزين الذين يمثلون الحركة الفكرية والادبية في تونس خلال القرن التاسع عشر محمود قبادو . ولما كانت القومية العربية مع المساهمة الفعالة التي اداها لها المسيحيون العرب ، ذات طابع اسلامي ، فان المؤسسات الفكرية التي انشاها ادباء ومفكرون في سبيل الاسلام وتحرير امه وتوحيدها اسهمت في تعزيز التيار القومي العربي حتى لنستطيع ان نورد في هذا المجال بتونس ، مثلا ، ما كان لجمعية « العروة الوثقى » التي انشاها جمال الدين الافغاني في مدينة كلكوته بالهند عام ١٨٨٢ ، وجريدتها الصادرة في باريس عام ١٨٨٤ على يد الشيخ محمد عبده ، من تاثير قومي في الفكر التونسي ، آنذاك ، حتى قام الشيخ محمد السنوسي يقرظ الجمعية وجريدتها شعرا . وكان السودان حتى بداية الحرب العالمية الاولى منعزلا عن النهضة التي شملت مصر والعالم العربي في بداية القرن التاسع عشر ، ولم تعمه النهضة التي حدثت في عهد محمد علي باشا والخديوي اسماعيل لان الاخلاص والوعي والرغبة الصادقة اعوزت معاونيهما في حكم السودان ، الذين سير اعمالهم الجشع والفساد في المدرسة التركية القديمة .

وابتدأت الانطلاقة السودانية العربية بعد عام ١٨٩٩ على اثر قيام الحكم الثنائي الانكليزي — المصري ، وفتح مدرسة « غردون » . ولم تكن فكرة العروبة بعيدة عن نفوس السودانيين . فالسودانيون ، كما يقول صاحب كتاب « الشعر الحديث في السودان » يعتدون بأصلهم العربي ، وتحتفظ قبائلهم بأنسابها العربية . اما في ليبيا ، فقد كانت الرقابة الايطالية تتصيد الاحرار ، ولم يجرؤ الشعراء على طبع شعرهم الوطني والقومي ، فلا تكاد تجد ديوانا مطبوعا . وقد اشار محمد الصادق عفيفي في كتابه « الشعر والشعراء في ليبيا » الى انه وجد ديوانين مطبوعين فقط لمصطفى بن ذكرى وسليمان الباروني ، وهما يحتويان على القليل من اشعارهما لانهما طبعاهما في مطلع حياتهما ، وقد توفي الاول عام ١٩١٨ ، والثاني عام ١٩٤١ . وقد روى المؤلف نفسه عن بعض الادباء الليبيين قوله : « ففي مدة الاحتلال الاسود التي تربو على الثلاثين سنة ، حرمنا من المشاركة في الفنون والعلوم العصرية ، فلا تاريخ لنا يدرس ، ولا لغة لنا تلقى ، ولا آداب لنا تنشر ، بل حجب عنا حتى مطالعة الجرائد والمجلات التي ترد الينا من الاقطار الشقيقة ، فبقينا منعزلين عن العالم العربي ، وعن الحياة الاجتماعية » . وكان الشعراء يوقعون بأسماء مستعارة ، ويتركون قصائدهم بلا توقيع احيانا ، تقية وخوفا من براثن المستعمر . وابرز الشعراء الليبيين الذي بلغ الشعر الوطني ذروته على لسانهم هو احمد رفيق المهدوي (١٨٩٨ —) ، غير ان الوطنية الليبية عنده اظهر من القومية العربية . وقبل ان نختم الكلام على الشعر القومي في افريقيا العربية ، لا بد لنا من الاشارة الى ما كان لبعض الشعراء التونسيين من نفحات عربية قومية ، نذكر منهم محمد الشاذلي خزنهدار (١٨٨١ —) ، وسالم الاكودي (١٨٨٢ —) ، وصالح النيفر (١٩٠٢ —) ونبقي مكانا خاصا لابي القاسم الشابي الذي كان له دور بارز في رفد التيار الوطني القومي منذ عام ١٩٢٥ حتى وفاته عام ١٩٣٤ ، ونشير الى ان الشعر الوطني في الجزائر ظهر مع الحركات الوطنية الاستقلالية خلال الثلاثينات من القرن الحالي . ولم يعدم المغرب العربي الشعر القومي خلال العشرينات ، اذ وجدناه عند شعراء من إمثال محمد القرى (١٨٩٩ —) ، ومحمد علال الفاسي (١٩٠٨ —) اللذين تحدثا الى قومهما وامتهما حديث من يعي وحدة الشعور العربي ، ويعتز بعروبته ، ويحافظ على لغته . فلمحمد القرى قصيدة يدعو فيها الى المحافظة على اللغة العربية ، وقد قال الفاسي في بعض شعره :

فما الفذ الا من تقلد رمحه   وما الفذ الا من يقول فيعرب

وهو القائل في مطلع قصيدة نظمها بمناسبة دخول جريدة « الشهاب » الجزائرية عامها الثاني :

قم للجزائر انعش مجدها العربي   انت الشهاب تضيء الفكر بالادب .

وليم الخازن

نعمت عامر شاعرة الوجدان

بقلم علي محمود البسيوني

* * *

كانت تلميذتي بالمدرسة ، اتذكرها في درس اللغة العربية نشيطة خفيفة ، تصغي في انتباه وتتحفز للاجابة عند السؤال في شوق ، فاذا وقفت في دروس النصوص تقرا الشعر العربي ، سمعت صوتا جميلا ، والقاء عذبا يمثل المعاني اجمل تمثيل ووالله لقد تنبأت لها بمستقبل ادبي نضير .

ومرت الايام تعدو ، وما اسرع ان تمر الايام ، وعلى غير موعد وجدتها ترسل الي ديوانها الشعري (امواج) وعلى الغلاف صورة الشاعرة الشابة ! لقد كانت فتاة صغيرة تتلقى الدرس بين يدي ، وها هوذا غصنها ينمو مزهرا في روضة الشعر ليتفتح عن مراى وعطر !

وفي مقدمة الديوان قصيدة لصالح جودت ! شاعر الغناء والحب ورفيق ناجي والهمشري ورامي ، لقد لفت شعوره وعقله هذا النغم الجديد فأصغى اليه متسمعا ثم أصغى الى صوت وجدانه فوجده يقول :

لها نغم مثل همس الملائك ... او وشوشات المنى العاطره
بها صور من دروب الجمال ... ملونة حية ناضره
وعاصفة تتحدى العواصف ... من مهجة بالهوى عامره
اناشيد تضفي عليها الا ... نوثة الوانها العذبة الفاخره

واذن ، فنعمت كما يراها صالح جودت شاعرة لها نغم كهمس الملائك ! ولشعرها صور جمالية حية ، وهي حين تثور في حماستها الوطنية تتحدى العواصف من مهجة عامرة بالهوى .

واي هوى لنعمت تلميذتي ، لقد بحثت عنه في الديوان فوجدته هوى الوطن وهوى الدين وهوى الام وهوى الزوج ! لن اذكر الزوج في حياة نعمت كيلا انكأ جراحها ، لقد غنت زوجها الحبيب اهازيج الحب والحان الوفاء فقالت فيه حيا :

شريك العمر يا امل الحياة ... اليك ومنك موهبتي وذاتي
فان جزت المدى في الشاعرات ... فانت السر في ماض وآت
وانت نجي الهامي وحسي
بناتي او بنات الشعر عندي ... لهن علي ميثاقي وعهدي
كما لك يا حياة الروي اهدي ... قصيدي وهو اشواقي ووجدي
يدل علي في يومي وامسي

ثم تقع الواقعة ، وترجف الراجفة ، فيغيب الزوج الحبيب عن الدنيا وتزلزل الارض بنعمت فتملأ عشها نواحا ، وتتردد الحانها الباكية على صفحات المجلات الادبية في مصر ، فتقرا من الشعر ما يزلزل الكيان ، ويوقد الاحساس ، وما يجعل دمعك يهمي لخنساء لا تبكي الاخ بل تبكي الزوج :

وقد بكت نعمت كثيرا وكان مما قالت :

احيط بقلبي فما يخفق ... بغير الاسى والردى مطبق
فزلزلت الارض زلزالها ... والجم شعري فما ينطق
ففيم بقائي بغير حبيبي ... وزهرة عمري به تعبق
لقد كنت اخشى مرور النسيم ... ولرة ترب به تعلق
فكيف بما قد اهيل عليه ... وكيف بقبر اذا يغلق
لقد كان درعي في النائبات ... فلست ابالي بما يحدق
ولست ابالي رعود الخطوب ... فاصبحت من همسها افرق

ورات نعمت ان تعتصم بالشعر في محنتها ، واستلهمت ايمانها حين ناجت ربها بقصائد عامرة ، ومدحت رسول الله بهتاف صادق حار ، وانسابت في صوفية حالمة تذكر برابعة العدوية حين تقول :

لكم ذبت شوقا بحب الاله ... بحب عميق بدا من ضياه
عرفت الطريق فما لي سواه ... وكلي ابتهال لالقى رضاه

اليس هذا النغم العذب مما يذكر بقول رابعة في مناجاة ربها العظيم :

احبك حبين حب الهوى ... وحب لانك أهل لذاكا

وهي قصيدة تحفظها نعمت وتسجل ابياتها بصوت ام كلثوم لتستريح الى سماعها ! وقد ملكت ام كلثوم قلب نعمت حقا ، فرسمت صورتها في ديوانها ونظمت في وصفها بارع ابياتها ! ولا احب ان اكثر الاستشهاد ، فالديوان ذائع ، والشعر عاطر فواح ! وعبير نعمت الانثوي لا يقتصر على ام كلثوم بل يشمل حواء في مراحل حياتها بنتا واما وزوجة ثم يشمل حواء مجاهدة مكافحة في عصر نعمت وفيما قبل عصرها بأجيال حين ينقب في صحف التاريخ ليتحدث عن اسماء ذات النطاقين ! وحين تباهي نعمت بنفسها فتقرن شعرها بشعر الخنساء وقد سخطت في بعض القصائد على الشعر حين يكون لهوا ضائعا ولعبا ورضيت عنه حين يكون تمجيدا للبطولة ، وقد استمدت الشاعرة مخولة من موقفها الحماسي فقالت في مثل جزالة ابي تمام :

ياتي من الجن شيطان فيدفعني ... الى الكتابة في شيء من القلب
يملي فاكتب ابياتا اذا قرنت ... حققت فيها حديث اللهو واللعب
واضلتاه لشعري لا يجنبني ... ما في الحياة من التلفيق والكذب
اني لاذكر اوطاني واسمعها ... انشودة المجد في وخد وفي خبب
فلن اقل عن الخنساء منزلة ... فيما خلقت له من نهضة العرب

ولا استغرب هذه الجزالة من نعمت فقد قرات ادب مصطفى صادق الرافعي واعجبت به ، ولعل صلة الرافعي بعمها الاديب السياسي السفير حافظ بك عامر مؤلف رسالة الحج هي التي جذبتها الى الرافعي اذ تحدث الرافعي عن عمها في اكثر من مقال بوحي القلم ، ومالي اقف عند الرافعي ولا اذكر صلة نعمت الادبية بالاستاذ احمد حسن الزيات الذي اهداها مجموعة الرسالة ونشر لها بعض القصائد في مجلة الازهر ، وقد حفظت لاستاذها الكبير مكانته فمدحته بأبيات من معدن ابي تمام تقول في بعضها :

يا بلبل الايك هل يشجيك تغريدي ... اذا شدوت وهل يسبيك ترديدي
لا لا لعمرك اني لست شاعرة ... مجيدة انما اصبو لتجويد
شعري شعوري ولكن لا يطاوعني ... ام لا يسلم بالابداع للغيد
كم ذا تراوغ عند السبك قافية ... نفارها كنفار الظبي في البيد

تفتيش

أوقفوني .. سألوني
عن بطاقة تعريفي .
فتشت كهوف المعطف ،
كان فوقي ، جبلا .
أخرجتها . كانت بلا صورة .
واسمي محاه المطر المتدفق .
أخذونـــي ..
صارت الامطار خلفي تتساقط .
جبهتي لم تتبلل .
كانت الشمس تصلي فوقها . .
دقب الاجراس خلفي ،
وتعالت نغمة الآذان
ترسم ابريل على واجهة الابراج ،
تمتد خلفي .

وجدة ــ المغرب — محمد علي الرباوي

وكـم معان كاطيار الربيع نــات — واسلست بعد تصويب وتصعيد
تالله آثاره الغراء مـا برحت — احــرى الكنوز بتمجيد وتخليد
من لي بنثر كنفح الطيب ترسله — يــد البراعة في حــذق وتنضيد

ولا يظن احد ان نعمت تلميذتي وحدها هــي التي تراوغها القوافي عند النظم وتنفر منها نفار الظبي في البيداء فالفرزدق كان يقول يأتي علي وقت وخلع الضرس اهون عندي من نظم بيت ، والشاعر الفحل علي الجارم يقول في مثل هذا الموقف عن الشعر :

آنــا يراوغني فانظــر ضارعا فيلين بعد تنكــر وجحــود
ولقــد اغــرد بالقريض فينثني فانـــال قادمتيه بالتغريـــد

وصديقي الراحل الكريم الاستاذ محمد الاسمر يقول عن الشعر ايضا :

انــي لاطلب اذ احاول صيده ما يرتجي في الغاب صائد ضيغم

واذا كان الفرزدق والجارم الفحلان هكذا . فكان الله لنعمت عامر .

على ان وقع الاحداث الشديدة على الشاعرة الرقيقة قد صرفها الى نوع من التفلسف فهي تفكر في الازل والابد والبقاء والفناء والوجود والعدم ولها في ذلك رنات شجية تقول في بعضها :

ان نخلــع ثوب البشرية — ونغيب بــارض حجرية
لا نشعر او نشعر ، ويلي — فهــي المأساة الابديــة
مهما عمرت بهــا امدا — تتناثــر اشلائي بــددا
وجيوش الــدود بمادبتي — تتوالى لا احصي عددا
افراسة روحي في واد — وكثافة جسدي في واد
اتجزا عجبــا بمماتي — يــا ليت بروحتي اخلادي

وهي زفرة تذكرنا بزفرات ابي العلاء والخيام وبها وميض من فلسفة ابن سينا وابن طفيل ، والموت هــو الموت ! والتفكير فيه شجى اليم .

ومن اجمل ما قرأت لنعمت الشاعرة ترجماتها الرائعة عن فحول الشعراء في الغرب والشرق فقد نقلت عن طاغور وشيلي وهيجو ولي هنت ، وايفينجي ايفتشينكو ونتولا نيكراسوف وجويس كلمر مقطوعات حية تحتفظ بحرارتها وجمالها في لغة نعمة كما ضمنت ذلك في لغتها الاصيلة ، ولا اترك القارىء الكريم حتى انقل له ترجمة نعمت عامر لاحدى روائع شيللي عن فلسفة الحب :

قــد سرى الجدول الرقيق الــى — النهر مشوقا في فرحة وابتهاج
وجرى النهر في انتشاء لبحر — يتغنــى بلجــه الرجـــراج
قصدا البحــر واثبــا لمحيــط — فـاذا كــل قطــرة في امتزاج
والنسيمات في انسجام رقيــق — تتناجــى في الفــة وانجــذاب
ليس في العالم الفسيح انفصال — بــل وصـــال موطــد الاسباب
فلمــاذا لا تمزجيــن بنفســي — ليس يجــدي تفرق الاحبــاب
انظري الطود يلثم الافق حبا — مثلمــا تلثــم الزهور الزهورا
وارقبي الموج يحضن الموج شوقا — وسنا الشمس يملأ الارض نورا
لا تــرى وردة تخاصم اخــرى — بــل عناق يتــح لثمــا كثيرا
قبــلات بكثــرة او بقلـــة — ضائعــات ، اذا غنيــت بقبلـة

هكذا تشعر نعمت وهكذا تترجم واني لارقب منها المزيد متطلعا الى غدها الخصيب .

القاهرة — علي محمود البسيوني



محمد العدناني

عثرات الادباء

بقلم محمد العدناني

* * *

في اثناء العام او غضونه لا في بحره

ويقولون : سأسافر الى المدينة المنورة في بحر هذا العام .
والصواب : سأسافر اليها في اثناء هذا العام او غضونه (بضم الغين) .

ويقال : جاء في غضون كلامك كذا ، اي : في اثنائه وطياته .

ومفرد الغضون هو الغضن (بفتح ففتح) او الغضن (بفتح فسكون) ، وهو كل تثن وتكسر في ثوب ، او درع ، او جلد ، او أذن (بضم فضم) او غيرها .

الراهب بحيراء او بحيرى

ويطلقون على الراهب الذي عرف النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وآمن به قبل بعثه ، اسم بحيرا (بضم ففتح) ؛ والصواب : بحيراء (بفتح فكسر) كما قال الذهبي ، وشراح المواهب ، ومستدرك التاج ، والمتن .

وجاء في مستدرك التاج : « وفي رواية بالالف المقصورة بحيرى (بفتح فكسر) » . وذكر القاموس ان من الاسماء : بحيرى (بفتح فكسر ، والف مقصورة في النهاية) .

وقال التاج في مستدركه ايضا : « قولنا بحيراء (بضم ففتح) غلط » .

البداءة ، البداية

يخطىء ابن بري والنووي من يقول : البداية (بكسر الباء) . ويريان انها لحن ، ويقول المطرزي والمصباح انها لغة عامية . ويرى هؤلاء مع اللسان ، والتاج ، والمد ان الصواب هو : البداءة (بكسر الباء) . ولكن :

يجيز استعمال البداية (بكسر الباء) كل من زهير بن ابي سلمى ، وعبدالله بن رواحة الانصاري ، وابن جني ، وابن القطاع ، واللسان ، والتاج ، ومحيط المحيط ، والمتن.

قال زهير بن ابي سلمى :

جريء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا ، والا يبد بالظلم يظلم

(بفتح لام (يظلم) الاول ، وكسر قاف (يعاقب) . يبد (بضم فسكون ففتح) ، وكسر لام (يظلم) الاخير) .

وقال ابن جني في « سر الصناعة » : « العرب ابدلوا الهمزة لغير علة ، طلبا للتخفيف ، كقولهم : قريت في قرات وبديت في بدات ، وتوضيت في توضأت » . ثم استشهد ببيت زهير ، وقال ان الشاعر اراد بكلمة (يبد) : يبدا (بضم فسكون ففتح فسكون) ، فقلبت الهمزة الفا ، ثم حذفت للجازم . فمن قال (بداية) بناه على هذه . وظاهر كلام ابن جني اطراده ، فلا خطأ في قولنا : بداية او بداءة .

وقال عبدالله بن رواحة الانصاري :

باسم الاله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقينا

(بدينا : بفتح فكسر) .

وقال ابن القطاع ان البداية لغة انصارية : بدات بالشيء وبديت به : قدمته . ثم استشهد ببيت ابن رواحة .

وهنالك مصادر اخرى ، هي :

بدء (بفتح فسكون) : التهذيب ، والصحاح ، والمحكم ، والمصباح ، والتاج ، والمد .

وبدء (بضم فسكون) : الاصمعي ، والتاج ، والمد .

والبداة (بفتح فسكون) : الصحاح ، والمحكم ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، والمد .

والبداة (بضم فسكون) : الصحاح ، والمحكم ، والقاموس ، والتاج ، والمد .

والبداة (بكسر فسكون) : اللسان والمد .

والبداءة (بفتح الباء) : المحكم ، والقاموس ، والتاج ، والمد .

والبداءة (بضم الباء) : الصحاح ، والمحكم ، والقاموس ، والتاج ، والمد .

والبداهة (بضم الباء) : المحكم ، والمغرب ، والتاج ، والمد .

والبدئية (بفتح فكسر) : المحكم ، والقاموس ، والمد .

والبداءة (بضم فتضعيف) : التهذيب ، والتاج ، والمد .

وهذا يجعلنا نستعمل هذه المصادر كلها ، دون ان نخشى من ينكر ذلك علينا .

لا بد لفلسطين من ان تعود الى اصحابها العرب

ويخطئون من يقول : لا بد لفلسطين ان تعود الى اصحابها العرب ، ويقولون ان الصواب هو : لا بد لفلسطين من ان تعود الى اصحابها العرب ، لان المصدر جاء هنا مؤولا . اما اذا جاء المصدر صريحا ، فاننا مضطرون الى اعادة حرف الجر ، نحو : لا بد لفلسطين من العودة الى العرب اصحابها .

وقد ذكر المرزوقي في الحماسة ، وهو يشرح بيت تأبط شرا :

ومن يغر بالاعداء لا بد انه سيلقى بهم من مصرع الموت مصرعا

(يغر : بضم فسكون ففتح) . اننا نستطيع ان نقول :

(أ) لا بد من انه سيلقى ... (ب) ولا بد من كذا .

(ج) ولا بد ان يلقى بهم ... (د) ولا بد انه سيلقى ...

وعندما شرح بيت يحيى بن زياد :

مضى صاحبي، واستقبل الدهر صرعتي ولا بد ان القى حمامي فاصرعا

لم يذكر الا : (أ) لا بد من ان يكون كذا . (ب) ولا بد ان يكون كذا .

وممن ذكر جملة (لا بد من كذا) : الصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة ، والمختار ، واللسان ، والمصباح ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن ، والوسيط .

وزاد محيط المحيط جملة اخرى هي : لا بد ان يكون كذا .

جاء بدران ، رايت بدران او بدرين

ويخطئون من يقول : رايت بدرين (بدران اسم رجل) ، ومررت ببدرين ، ويقولون ان الصواب هو : رايت بدران ، ومررت ببدران . والنحاة يجيزون الوجهين ، اذ يصح ان تقول : رايت بدرين او بدران ، ومررت ببدرين او بدران :

(١) بحذف علامتي التثنية من آخر كلمة بدران (لانها ملحقة بالمثنى ، وليست مثنى حقيقيا) ، واعرابها بعد ذلك بالحروف كباقي انواع المثنى الحقيقي ، فنقول : جاء بدران (بكسر النون) ، ورايت بدرين ، وسلمت على بدرين . وهذا قد يوهم انه مثنى ، ولا يأمن اللبس فيه الا خبير يعرف انه مفرد ، ويدرك ان العلم المثنى لا يتجرد من « أل » الا عند اضافته ، او ندائه ، وهذا غير مضاف ، بل انه قد يضاف فيزداد اللبس قوة .

(٢) بالزامها الالف والنون ، مثل عمران ، واعرابها اعراب ما لا ينصرف بحركات ظاهرة فوق النون ، فترفع بالضمة من غير تنوين . وتنصب وتجر بالفتحة من غير تنوين ايضا . وهذا ايضا لا يخلو من اللبس احيانا .

ويرى صاحب النحو الوافي ابقاء العلم على حاله — من الالف والنون ، او الياء والنون — مع اعرابه كالاسم المفرد بحركات اعرابية مناسبة على آخره . وهذا الوجه وحده اولى بالاتباع ، اذ لا يؤدي الى اللبس ، لانه الموافق للواقع ، وليس في اصول اللغة ما يمنعه ، بل ان كثيرا من المعاملات الجارية في عصرنا توجب الاقتصار عليه ، فالمصارف — مثلا — لا تعترف الا بالعلم المحكي ، اي المطابق للمكتوب نصا في شهادة الميلاد ، وفي الشهادة الرسمية المحفوظة عندها ، والمماثلة لما في شهادة الميلاد ، ولا تقضي لصاحبه امرا مصرفيا الا اذا تطابق توقيعه ، واسمه المسجل في تلك الشهادة تطابقا كاملا في الحروف وفي ضبطها . فمن اسمه حسنين او بدران ، يجب ان يظل على هذه الصورة كاملة في جميع الاستعمالات عندها ، مهما اختلفت العوامل التي تقتضي رفعه ، او نصبه ، او جره .

فلو قيل : حسنان ، او بدرين ، تبعا للعوامل الاعرابية ، لكان كل علم من هذه الاعلام دالا في عرف المصرف ، على شخص آخر ، مغاير للشخص الذي يدل عليه العلم الاول ، وان لكل منهما ذاتا وحقوقا ينفرد بها ، ولا ينالها الآخر ، ولن يوافق المصرف مطلقا على ان الاسمين لشخص واحد ، ولا على ان الخلاف يتجه للاعراب وحده دون الاختلاف في الذات . ومثل المصارف كثير من الجهات الحكومية ، كالبريد ، وانواع الرخص ، والسجلات الرسمية المختلفة .

وانا أؤيد صاحب النحو الوافي في رايه هذا ، لانه منطقي ، ويبعدنا عن اللبس والغموض .

لا يبدىء ولا يعيد

ويقولون : فلان لا يبدي (بضم فسكون) ولا يعيد ، اي : لا يقول شيئا اول الامر ، ولا يقول شيئا في المرة الثانية ، او : لا حيلة له ، او : هو سليم القلب ، او : هلك .

والصواب : فلان لا يبدىء ولا يعيد ، كما يقول الصحاح ، واللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والوسيط .

ولم يذكر (ما يبدي وما يعيد) سوى متن اللغة ، الذي عثر هنا ، او سقطت همزة (يبدىء) من منضد الحروف ، وهو ما ارجحه ، لان المتن من المعجمات الدقيقة .

تبدى : اقام بالبادية . ظهر

ويخطئون من يستعمل الفعل تبدى (بفتحتين وتضعيف والف مقصورة) بمعنى : ظهر ، ويقولون ان معنى الفعل تبدى هو : اقام بالبادية ، اعتمادا على الصحاح ، والاساس

(الذي قال : تبدى الحضري) ، والمختار ، والقاموس ، ولكن :

يقول ان معنى (تبدى) هـو : (أ) اقام بالبادية (ب) ظهر : كل من (١) قيس بن الخطيم القائل : « تبدت لنا كالشمس تحت غمامة » (٢) واللسان الذي ذكر في مادة (جيش) ان ابن الاعرابي انشد : « قامت تبدى لك في جيشانها » (بفتح فسكون) . ويرى ابن سيده ان الشاعر اراد : « في جيشانها (بفتح الياء ايضا) ، اي قوتها وشبابها ، فسكن الياء للضرورة . (٣) والتاج الذي ذكر ما جاء في اللسان في مادة (جيش) . (٤) والمد ، (٥) ومحيط المحيط ، (٦) وذيل اقرب الموارد ، (٧) والمتن الـذي استشهد ب :

وبـدت لميس كانهـا قمر السماء اذا تبدى

(٨) والمعجم الوسيط . وجاء في متن اللغة : تبدى في منطقه : جار .

بذ فلانـا وبـزه

ويخطئون من يقول : بز (بفتح وتضعيف) فلانا ، اي : غلبه ، ويقولون ان الصواب هو : بذ فلانا ، ويعتمدون على الحديث : بذ القائلين ، اي : سبقهم وغلبهم . ومنه صفة مشيه صلى الله عليه وسلم : يمشي الهوينى ، يبذ القوم اذا سارع الى خير ، او مشى اليه ، اي : يسبقهم .

ويعتمدون ايضا على الصحاح ، الذي يقول : بذه : غلبه . اما بزه فيقول ان معناه هو : سلبه ، وفي المثل : من عز بز . وعلى معجم مقاييس اللغة ، وعلى الاساس الذي قال : بذ فلان اصحابه : غلبهم . ثم استشهد ببيت النابغة الجعدي :

يبـذ الجيـاد بتقريبه ويأوي الى حضر ملهب

حضر : (بضمتين) .

ولكن :

قال ان الفعلين بذه وبزه كليهما يعنيان (غلبه) كل من اللسان ، والقاموس ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، والمتن . والوسيط .

اما مختار الصحاح فلم يذكر (بذ) ، ولكنه قال ان معنى (بز) هو : سلب ، واستشهد بالمثل الذي استشهد به الصحاح .

وفعله : بذه يبذه (بضم الباء) بذا ، وبذيذة (بفتح فكسر) : غلبه .

اما الفعل بذ (بذذ : بفتح فكسر) يبذ (بفتح الباء) ، بذذا (بفتح ففتح) ، وبذاذا (بفتح الباء) ، وبذاذا (بكسرها) ، وبذاذة (بفتح الباء) ، وبذوذة (بضمها) فمعناه : ساءت حاله ورثت هيئته ، فهو باذ ، وهي بذ وبذة وباذة .

والفعل بزه يبزه (بضم الباء) بزا (بفتح الباء) وبزيزى (بكسر فتضعيف والف مقصورة) : غلبه وغصبه .

وبز الشيء : انتزعه . اخذه بجفاء وقهر .

وبز ثوبه : جذبه اليه .

الساتـر لا البرافـان

ويطلقون على شبه الجدار المتنقل ، المصنوع من الخشب والنسيج غالبا ، للفصل بين الناس ، اسم برافان ، تعريبا للكلمة الفرنسية .

وانا اقترح علـى مجامعنا الاربعة الموافقة علـى استعمال الكلمة العربية البسيطة (الساتر) ، بدلا من كلمة (البرافان) الفرنسية الدخيلة .

التبرير والتسويـغ

ويخطئون من يقول : الغاية تبرر الواسطة ، ويقولون ان الصواب هو : الغاية تسوغ الواسطة ، لان المعجمات لا تذكر ان الفعل (برر — بفتح فتضعيف) يعني سوغ (بفتح فتضعيف) ، ما عدا الوسيط الذي قال : « برر عمله : زكاه ، وذكر من الاسباب ما يبيحه (محدثة) .

ولكن :

جاء في الجزء الحادي عشر من «البحوث والمحاضرات» للدورة الرابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٧ — ١٩٦٨ :

اجتمعت لجنة الاصول خلال سنة ١٩٦٧ ، ورات ما ياتي :

« في المعجم : بر (بفتح فتضعيف) حجه : قبـل (بضم فكسر) ، وتضعيفه برره : جعله مقبولا ، ومن ثم ترى اللجنة اجازة ما شاع من استعمال التبرير في معنى التسويغ ، استنادا الى قرار المجمع في قياسية تضعيف الفعل للتكثير والمبالغة » .

محمد العدناني

الايام الهاربة

*

فاديــة الزعبــي

*

الدسمة ــ الكويت



.. وان الايام الهاربة في المتاهات
لا يلوح لي منها وميض شقاء .
انها أيامي ،
اتبناها ، بكل غصصها وابتساماتها
انها سجل ذكرياتي ..
ذكريات كل خطوة في الدروب الماضية

من قال : اني اعلنت براءتي منها
حتى جئت تدعوني الى فضيلة النسيان ؟
أالغي تاريخ عمري ؟
اتهرب الايام مني
ثم اكون هاربة ، في آثارها ؟

لقد بثثت في ضميري خلجات الشموس
وأنميتني على عهد الهوى والجمال
نسجت لي من وعودك مآزر كبرياء
وألبستني من التيجان
ما لبسته ، قبلي ،
أميرات الاساطير !

ايامي الهاربة
حملت كل الشموع والاشعة
اخذت بيديها عطور البخور ...
سلبتني أحلام براءتي
وتجيئني ، بعد هذا
تدعوني الى فضيلة النسيان !
تدعوني الى الغاء تاريخ عمري ؟

كلا ، يا رفيق أيامي الهاربة
ربما استطعت اطفاء بريق الشموس
ربما خنقت عهد الكواكب بالضياء
ربما سلبتني تاج أميرات الاساطير
وربما مزقت المآزر
المنسوجة من كبرياء الوعود الآفلة !

ربما يا صديقي
يا رفيق الايام الهاربة
أيها الداعي الى فضيلة النسيان ..
ربما هربت مني كل أحلام البراءة

لكن حبا روى سنواتي الظامئات
وأملا أضاء جنبات الهوى الحالك
لن يموتا
لن يضيعا ..
لن يهربا كما هربت أنت
كما هربت أيامك في المتاهات !



الدكتور عبد السلام العجيلي

ازاهير تشرين المدماة

بقلم عدنان بن ذريل

* * *

الملازم سامي مدرس ادب عربي ، وهو اديب وشاعر ، اصيب في احدى طلعاته الاستكشافية بقنبلة شوهت وجهه ، وكسرت ساقه ، واقعدته عن السير ، وها هو في المستشفى العسكري ينتظر عملية التجميل الثالثة ، والجبصين لا يزال على ساقه ، والحرب لا تزال دائرة ، وفي غرفته نسمع الى طرف من اخبار المعارك ، يرويها اخوانه ، وزواره في المستشفى .

هذا هو الاطار الذي ضمنه يحرك (عبد السلام العجيلي) شخوص روايته الجديدة : — ازاهير تشرين المدماة — ، وهي رواية قصيرة من النوع المعروف بالقصة القصيرة المطولة ، قال في مقدمتها :

— روايتي هذه قصة اطارها متخيل ، واحداثها واقعة . وقد انتقيت لاغلب ابطالها الواقعيين اسماء مستعارة ، واذا كان فيها من اسماء حقيقية فهي لمن استشهدوا وقضوا في سبيل وطنهم والمثل العليا .

ثم يقول : وهي عمل ادبي مقتضب لم يتسع الا للمع ضئيلة من احداث حرب تشرين الاول ١٩٧٣ وبطولاتها في مختلف ساحات القتال . وانا اعترف بعجزي عن ايفاء هذه اللمع حقها من الوصف فيما كتبت . فالكتابة مهما بلغت من الاعجاز لا تستطيع الاحاطة بالواقع كل الاحاطة . فكيف اذا كان الواقع خوضا للمخاطر ، وتضحية بالنفس ، والسير الى الموت اختيارا ودون تهيب لصد المعتدي وصيانة تربة الوطن المقدسة ؟ .

وبالفعل ان حس الواقع في الرواية شيء بارز : ويتخذ عدة مظاهر ريبورتاجية ، وتسجيلية ، ومواقفية . ويدل على صدق (عبد السلام العجيلي) في النقل عن الحياة ، وتوثيق وقائعها ، وتفنيد ماجريات الامور فيها .

ان الرواية تجري كلها على لسان المتكلم ، والذي هو الملازم سامي الذي يروي لنا خبر حواراته مع اخوانه ، وزواره ، وقصصهم في معارك حرب تشرين .. وقد ظلت حتى نهايتها في حدود تجربة هذا الملازم الباسل الشجاع ، وعلى الخصوص حدود مناسبة دخوله المستشفى وخروجه منه ، ولذلك ظلت فنيتها هي فنية القصة القصيرة المطولة ، التي تقوم برصد اللقطات ، او تثبيت المواقف بالقدر الذي يسمح به تكامل السرد والوصف والتحليل فيها ، والتفنيد .

في حين انه بالعادة يقوم البناء الروائي على حدث كبير تسببه صراعات اجتماعية ، ونفسية بين شخوص الحياة ، وتسرد الرواية اخبارهم ، او تصف ظروفهم ، وتحلل شخصياتهم ، وبالعادة يكون هناك بطلان من ذكر وانثى ، او من جنس واحد يمثلان هذه الصراعات ، وتتعلق بهما حركة العمل الروائي ، والاحداث الثانوية الاخرى التي تجري للشخوص الآخرين ، مما يتيح تسليط الاضواء على التجارب ، والمواقف المتنوعة فيها .

ولكن هنا لا شيء من ذلك ، فلا صراعات ، ولا احداث ثانوية ، ولا مناظر جانبية ، وانما فنية قصة قصيرة مطولة ، تقوم على تسجيل اللقطات ، والتعليقات التي يمكن ان يستوعبها حديث الملازم سامي عن دخوله المستشفى وخروجه منه .. ولذلك بدت الرواية انها مجموعة لوحات تسجيلية عن حرب تشرين ، او انها افتقدت عنصر التحليل ، كما ذهب الى ذلك عدد من النقاد ، منهم عبد الكريم الناعم ، ورجاء طائع وغيرهما ، ولكن الاصح ان نقول انها تحقق فنية القصة القصيرة المطولة ، فتسرد ، وتحلل بشكل مواقفي تسمح به الاقتضاب في تسجيل الواقع .

الاثر الهام هو الذي يجمع هذه الحكايات المتفرقة عن معارك حرب تشرين ، بحيث انها مشاهد واقعية عن الحرب نتبينها من خلال الحوادث والتعليقات ، وخطوات التسجيل فيها هي على النحو التالي : الملازم سامي يتذكر استشهاد صديقه الملازم محمود ، وهو فلسطيني ، في اليوم الاول من الحرب في طلعة استكشافية عند حدود بحيرة طبريا ، صداقة مع رئيسة الممرضات ياسمين ، وهي ايضا فلسطينية ، وحديث معها عن خروجها من الطيرة عام

١٩٤٨ . تحت وابل نار اليهود . غلجات مع اهلها الى طولكرم . ثم اضطرارها من جديد معهم اثر حرب ١٩٦٧ الى مغادرة طولكرم واللجوء الى الشام .

ثم ينتقل فيحدثنا عن ساقه كسرها وجبرها ، ثم عن خطيبته سلوى ، وكيف اعطته ايشاربها عندما اعلمها بقطع اجازته ، والتحاقه بسريته ، وكيف طلبت اليه ان يبله بماء بحيرة طبريا ، ثم قيامه بالعمليات الاولى ، وننتقل اثرها الى خبر الرائد بشارة من البحرية ، واصابته بالشلل بفعل التبرد ، ثم قصة المجند عبدالله الذي رقي الى ملازم بفعل صده هجوم الدبابات نصف ساعة بسلاح فردي من قذائفه .

وينتقل الحديث الى الغارة على دمشق ، ومستويات التسلح والقتال ، ثم نعود الى المعارك الجوية ، وحديث الفانتوم ، والميراج ، والميج ، مع عودة الى الرائد بشارة وشلله ، وايضا خطوبته ، ولياسمين والملازم محمود ، ثم نسمع من الرائد بشارة قصة غرق زورقه ومكوثه في عرض البحر سبع ساعات سباحة حتى انقذ .

ثم نعود الى حديث ياسمين والملازم محمود ، وايضا الملازم سامي وخطيبته ، ثم ننتقل الى الحديث عن معنويات الحرب ، وايضا دروس الحرب ، ونسمع قصة عن المدرعات وقتال الدبابات ، ثم نعرف ان ياسمين كانت زوجة للملازم محمود ، الا انها آثرت الطلاق منه بفعل اختلافهما في امر العمل في مؤسسات الجيش ، وهناك تظهر غيرة المساعد نعمان على ياسمين ، واهتمامه بها ، ومساعدته لها في اعمالها ، ثم نجد الملازم سامي يبلغ ياسمين بحب نعمان لها ، ويوصيها خيرا به ، وتزور سلمى المستشفى ، ويخرج الملازم سامي منه معافى .

وقد وفر (عبد السلام العجيلي) لهذه الرواية القصيرة ، وتسجيلاتها خطين متكاملين ، الخط الاول رومنطقي شاعري ، عن الحب والخطوبة والزواج ، كما في علاقات سامي وسلوى ، وبشاره ونادية ، دعمه بحس للجمال ، وانس للطبيعة ، كما في اوصاف الخريف ، وخاصة قصص ازاهير تشرين التي يقطفها نعمان في طلعاته الاستكشافية ، ومنها الزهرة التي قطفها عندما ذهب لتفقد حال الملازم محمود ورفاقه ، فوجدهم صرعى . نثرت دماؤهم على الارض ، فجففها وكانت مدماة وظل حديثها يتردد حتى خروج سامي من المستشفى .. والخط الآخر مرح ، وفي بعض الاحيان ساخر ، ويتمثل خاصة في احاديث نعمان ، وتعليقاته ، وكانت بمثابة تنفيس لاجواء المستشفى ، والحرب على السواء .

كيف رسم (عبد السلام العجيلي) شخصيات هؤلاء الابطال ؟ . وما هي حيثياتهم ؟ . لا بد ان نلاحظ هنا صلة الشكل بالموضوع ، وبالتالي صلة هذا الرسم بمضامينه ؛ وذلك ان موضوع الرواية ، ولقطاتها موضوع عسكري عن الحرب ومعاركها ؛ ومضامين سردها واوصافها هي تجربة هذه الحرب ، والتي نتبينها عبر احوال هؤلاء الاشخاص منها ، ومواقفهم فيها .

ولذلك نجد ان الابطال فيها مشدودون الى مواقفهم الراهنة ، الى الحرب نفسها واخبارها ، الى همومهم الشخصية ، ومنها الاضرار الجثمانية سبب وجودهم في المستشفى .

— ما شاء الله ، اكتمل النصاب ، وعادت الندوة الى سابق ايامها ، كأننا في اول ايام الحرب .

— لا ، بل نحن في ايام السلم الجميلة ، على رغم وقائع حرب الاستنزاف التي تدور على مقربة منا .

ضحكنا كلنا وقال المقدم : نحن مدينون لك بصمتنا يا سيادة العقيد .. عن قريب يلتحق كل منا بقطعته ، وهذا فضلك .

— نعم ستعودون الى قطعاتكم . ينتظركم هناك عمل . العدو يأبى لكم ان تتمتعوا بصحتكم وبصباكم كما يتمتع بها الشباب في كل انحاء العالم .

وعلى هذا النحو تستطيع ان تتبين ارتباط بقية الاشخاص بمواقفهم في اللقطات ، والقصص التي تورد اوصاف معاركهم ، حيث الدقة ، والتشويق في رصد هذه المعارك في ساحات القتال المختلفة برا ، وجوا ، وبحرا ، وحيث التفنيد والشاعرية يمدان هذه الاوصاف بنسغ انساني واقعي مشبوب ، ومعبر :

— الذي يعزيني اننا لسنا الذين نريد الحرب ، هي مفروضة علينا من معتد يغتصب حقنا ، ويريد فوق ذلك ان يذلنا . ملازم سامي ، قرأت لي مرة شعرا معبرا عن التضارب بين رغبة الانسان في السلم ، واضطراره الى مواجهة الحرب بسبب ما يتعرض له من ظلم ..

— لا ادري اية قصيدة تعني ، ولكن المتنبي يقول :

ومراد النفوس اهون من ان نتعادى فيه وان نتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحات ، ولا يلاقي الهوانا

قال : صدق ، وما رأيك انت يا مساعد نعمان ؟

فحك نعمان رأسه ، وتردد قليلا قبل ان يقول : اذا كان الهوان هو الهاون سيدي ، فنحن لاقيناه ، ولم يخفنا . قنبلة هاون ، ومن النوع الحارق ، المتفجر ، الفظيع اصابت سيارتنا ، انا وسيادة الملازم ، ولكنها لم تقض علينا .

ضحكنا كلنا لتفسير المساعد لكلمة الهوان ، الا ان ذلك لم يربكه ، ولا منعه من متابعة الكلام بقوله :

— صحيح انها فجرت سيارتنا ، وحرقتها ، وجرحتنا ، ولكنها لم تقض علينا . نحن عائدون الى قطعاتنا ، وسائرون في الطريق حتى النصر .

اننا هنا امام اشخاص من الحياة ، والواقع ، مندمجين في مواقفهم ، متعاطفين فيما بينهم بحكم ظروف القتال والحرب ، وبحكم شعورهم بواجبهم ومسؤولياتهم تجاه الاحداث .. ورسم الشخصيات هنا هو مجرد تثبيت مواقفي

نهاية الرحلة

حينما رحلت في عيونك ــ البحيرة
راكبا بساط الموجة المنطفئة
ماسكا زمام الماء والاعشاب .. والطحالب الملونة
كانت عناكب الخريف في انتظاري
تراقب انكسار الضوء في مدامع النهار
ومركبي في الوحل يا صديق
اخاف من عوائق الطريق
اخاف من غدي المجهول
الخوف في خطاي ... والموت فيك يا سهول

القاهرة حسين علي محمد

لمجريات هذه الحياة واصدائها ، بنفس المدلول العلمي(1) الذي لعلم نفس الموقف ، حين يعتبر السلوك جزءا من المجال النفسي يظل مرتبطا بالواقع الحاضر ، لانه نتيجة تركيبه في زمن معين .

فمثلا (الملازم سامي) الذي تشده اصابته الى واقعه الحاضر في المستشفى هو ايضا مهموم بالحرب ، ومهموم بخطوبته ، ومهموم ايضا بصداقاته .. انه لا ينفك يذكر منديل خطيبته ، وكيف طلبت منه ان يغمسه في مياه بحيرة طبريا ، ولكنه لم يستطع ان يلبي لها طلبها ، مما ظل يحز في نفسه ، حتى صار محل تعليقات اخوانه .. يضاف الى ذلك شعوره بثقل هزيمة حزيران على نفسه ، ووطنه ، وهذا شيء واضح في حواراته ، او شعوره بمعنويات الحرب ، وكيف تقوم على القوة والتدريب والشجاعة والانسان نفسه :

ــ اعود الى ما قاله الملازم سامي عن القوة . احترقت قلوبنا مرات ، ونحن نحارب من نقص القوة التي يعنيها الملازم ، قوة السلاح . ولكن ما شاهدناه من قوة النفس سمح في مرات كثيرة منها على حريق القلوب واهم . لا اتكلم عن سلاح المدرعات ، بل عن ما رأيته فوق راسي من فعال طيارينا : حلقت فوق سريتنا اربع طائرات عدوة . اثنتان منها فانتوم ، واثنتان ميراج . كنا هدفا سهلا لها ، وكانت خطرا محققا علينا . طلبنا الحماية الجوية ، فجاءتنا اربع طائرات ميغ ١٧ . الميغ ١٧ امام الفانتوم وامام الميراج عصفور امام باشق ، ولكن لو رأيتم سيدي كيف كانت هذه

العصافير تناور على صفحة السماء الزرقاء ، تعلو وتهبط وتلف وتنحرف .. كانت الميغ ١٧ سيوفا قصيرة ، فلما خطا بها فرسانها خطوة الى الامام طالت .
ــ القوة سلاح وشجاعة . اذا خاننا السلاح ظلت لنا الشجاعة .

ــ الحق معك ، القوة ليست في السلاح وحده ، بل هي في شجاعة الرجال وتصميمهم ، وعنادهم مع السلاح ، او ربما هي قبل السلاح ، ان الشجعان موجودون في كل الاسلحة .

وهناك (ياسمين) رئيسة الممرضات ، والتي نتبين من سرد الرواية انها كانت زوجة الملازم محمود رفيق الملازم سامي في طلعته الاستكشافية الاولى ، وقد استشهد في تلك الطلعة عند بحيرة طبريا .

انها شخصية عصامية ، ونظامية ، تحب عملها ، انيسة وودودة .. وقد توفق (عبد السلام العجيلي) في رسم شخصيتها ، واندماجها في عملها ، وعلى الخصوص في الكشف عن تاريخيتها ، وتجاربها ، ان المساعد نعمان يميل اليها ، وربما طلب يدها للزواج ، وقد اوصاها الملازم سامي خيرا به ! . فهل يا ترى تقبل بنعمان زوجا ؟ ! .

اظن انها سترفضه ، وترفض طلبه ، وتؤثر عليه حريتها وعملها ، وعلى الخصوص ان المساعد نعمان مرح يحب المزاح والمشاكسة ، وان وضعه ، ورتبته في الجيش غير مشجعين على الزواج ، وانه يذكرها بزوجها الملازم محمود الذي كان يمانع في ممارستها عملها ! . وارجو في الختام ان اكون جلوت المسائل الهامة العلمية والفنية المتعلقة بهذا الاثر الروائي القيم ، والى اللقاء .

دمشق عدنان بن ذريل

(1) سبق في كتبي ودراساتي عن الادب القصصي والروائي في سورية ، او عن ادب عبد السلام العجيلي نفسه ان استعملت هذا المدلول العلمي ، والذي نتبينه هنا كاوضح ما يكون ، وارجو ان يتاح لي قريبا الكتابة للاديب القراء عن علم نفس الموقف ، والشخصية .



نقولا يوسف

مع نقولا يوسف في رسائله

بقلم ايليا حليم حنا

* * *

عرفت اديبنا الراحل « نقولا يوسف » في آثاره المنشورة وكتبه ، وكنت على صلة روحية معه خلال ما يزيد على ثلث قرن ، وعرفته اكثر من خلال ما تبادلناه من رسائل رغم ان فترة تراسلنا كانت قصيرة ، بدات عام ١٩٧٥ عندما بلغ اديبنا الراحل السبعين من عمره ، وقد وجهت اليه وتئذاك تهنئة بهذه المناسبة في صحيفة « اخبار دمياط » التي ظل الفقيد يكتب فيها منذ نشأتها في عام ١٩٤٩ حتى رحل عن عالمنا ، والتي زاملته في الكتابة فيها منذ عام ١٩٥٣ ، الامر الذي جعلنا نلتقي اسبوعيا تقريبا فيما نكتب ورسخ بيننا على البعد .

وفي ٢٠ يناير ١٩٧٥ وجه اديبنا كلمة الشكر التالية الى مهنئيه بعيده السبعيني في صحيفة (اخبار دمياط) : « ازجي شكري العميق الى الاخوة الاجلاء الذين اختصوني بتهانيهم وامانيهم لمناسبة عيد مولدي السبعيني — واخص بالذكر الزميل الكاتب الكبير الاستاذ ايليا حليم حنا صاحب التعليقات والاحاديث الشائقة على كلمته الرقيقة المنشورة في العدد الاخير من صحيفتنا (اخبار دمياط) راجيا له العافية والحياة الموفورة » .

كان شعورا طيبا منه جعلني احس برغبة قوية في الكتابة له ولكن حال دون ذلك عدم معرفتي عنوانه ...

وكانه كان بظهر الغيب يدرك رغبتي فبادرني بما كنت اريد ان ابادره به ، وتسلمت رسالته الاولى التالية مؤرخة في ١٩٧٥/٢/١٢ :

اخي الكاتب الجليل الاستاذ ايليا حليم حنا

تحية المودة والتقدير ... سعدت بتمنياتكم الاخوية في ذكرى مولدي السبعينية — المنشورة بجريدة (اخبار دمياط) ... وقد شاء صديقي الاستاذ سمير وهبي ان يحتفي بهذه الذكرى « المجيدة » ... بمجلة (الاديب البيروتية) — كما يفعل كتابنا اليوم في سبعينيات مشاهيرنا ! فكان له ما اراد وكان له الشكر الجزيل ... ولكم يا اخي خالص الشكر على هذه المشاركة الكريمة — وارجو لكم حياة مديدة سعيدة ...

ولقد كنت منذ عهد بعيد من قراء ابحاثكم وتعليقاتكم في (اخبار دمياط) و (الاديب) وغيرهما — ومع ذلك فلم تشأ المقادير ان ابادئكم بالمراسلة لجهلي عنوانكم — وكنا نحن رجال التعليم كالبدو الرحل تتغير عناويننا بين يوم وآخر — ! حتى الهمت اليوم بسؤال (الاستاذ زكريا الحزاوي(1)) عنه فتفضل مشكورا بارساله الي بالبريد — هذا الى ما نعلمه جميعا من عبث البريد بالرسائل والمطبوعات مما يدعونا الى الشك في وصولها ! ... يا ليت هذه الرسالة تشذ عن القاعدة فتصل اليكم سالمة ولو بعد حين !

ويا ليت العمر يمهل شيخا مثلي فاقرا ابحاثكم ومقالاتكم مجتمعة في مجلدات ... واستطيع انا ايضا ان اجمع شيئا مما انشر في مجلد اسعد باهدائه اليكم قبل ان يتغير العنوان ! ...

لكم يا اخي الاديب الكبير ازكى تحياتي وشكري ودعواتي ... دمتم للمخلص نقولا يوسف .

امسكت بالقلم بمجرد ان فرغت من تلاوة الرسالة لأعبر له عن فرحي العظيم برسالته الرقيقة ، واشكر له تلك المبادرة الطيبة متمنيا ان تدوم المراسلة بيننا ولا تنقطع ... ورجعت باديبنا الراحل الى شبابه وانتاجه المبكر ، وما قراته له في تلك الآونة ، وانا لا ازال طالبا في المرحلة الثانوية ... حقا لقد قرات باهتمام كل ما كان يكتبه وتابعت نشاطه الادبي المتعدد النواحي الذي يلمس فيه قراؤه ، وانا واحد منهم . اصالة الفكر وسلامة الاسلوب ، والقيم والمفاهيم الانسانية العالية ... وسرت معه في فكره وكل ما تمكنت ان احصل عليه من انتاجه ولكن هذه الصداقة الفكرية الروحية المباشرة شيء آخر ...

انني وان كنت قد التقيت به فكريا منذ زمن بعيد ، الا ان هذا اللقاء اروع واكثر حيوية ... انه تبادل ثقافي ، وغناء روحي ، وزاد فكري ، وحوار تلقائي ، وتقارب حي يمكنني ان اعرف عن اديبنا واكثر مما عرفت عنه من كتبه وما كتب عنه .

(1) صاحب ورئيس تحرير (اخبار دمياط) .

المحت الى هذا في رسالتي اليه وشكرت له احساسه الكريم راجيا ان تستمر المكاتبة بيننا كلما سمح له الوقت متمنيا له موفور الصحة ، وطول العمر ، والانتاج الوفير .

ولم يطل انتظاري لرده ، وتسلمت الرسالة التالية مؤرخة في ٧٥/٢/٢٥ :

اخي الكاتب الجليل ...

تحية المودة والتقدير ... تلقيت رسالتكم المؤرخة في ٧٥/٢/١٧ ، وهممت بافادتكم عن وصولها سالمة — لم تفقد او تتأخر في الطريق على ما عودنا البريد احيانا — وسبب لنا من الحرج مع الاصدقاء الوانا ! .

ولكن — لم يكن هناك مفر من تلبية دعوة (قصر الثقافة) بالاسكندرية لادارة ندوة ادبية (أمس ٢/٢٤) — تدور حول « يحيى حقي وقصصه — وقنديله » — مجاراة لادباء القاهرة المحتفلين بذكرى مولده السبعينية — وهو الصديق القديم الظريف الخليق بالوفاء والتكريم — فشغلني اعدادها بضعة ايام وليال ...

وبعد ... فالحق لقد كانت هذه المراسلة بين اديبين متعارفين متفاهمين — على البعد — بعد تلك السنوات الطوال — شيئا جميلا ... وهي وان جاءت متأخرة فلعل « كل تأخير فيه خير » !

ولقد اثارت رسالتكم في نفسي كثيرا من الذكريات التي يحلو لشيخ مثلي استعادتها — وهأنذا اجيب على ما ورد منها في هذا المكتوب الاخوي الكريم : — فأما كتاب « الفردوس » المطبوع لصبي في الثامنة عشرة — عام ١٩٢٢ — فهو كما لاحظتم ولا شك — وليد عهد الشعر والاحلام... وكنت يومذاك اكتب الشعر المنثور . — ونشرت منه ما اجتمع فيما بعد في كتاب سميته « نسمات وزوابع » — المنشور عام ١٩٢٧ — فلما هجرتني الرؤى والاحلام ، وزجت بي حقائق الدنيا وسط متاهاتها ، هجرت راغم الانف عرائس الشعر الى دمى البشر ! وجاء ذلك الحلم الاول في ثوب قصة شعرية تحلم بالطوبى « يوتوبيا » — على جزيرة بعيدة عن دنيا الناس ومشاكلهم ! تديرها عرائس الشعر والاحلام ! وخرج الكتاب لا قصة ولا شعرا ! ... وكان المسؤول عن ظهوره ناشر أمي لم يقرأه وباعه بمكتبة في الفجالة كما يباع الفجل — وسرعان ما نفد واحتجب !...

واما « الهام » الرواية التي تلت هذين العملين الشعريين — فقد ولدت بين عهدي الحقائق والاحلام — كتبت في العشرينيات ولم تطبع حتى ١٩٣٧ عندما سهل الصديق الكبير سلامه موسى امر طبعها في مطبعته — وبطلها كما قرأتم الشاب « فريد » ويليه رفيق صباه الفتى « سمير » — والشابان يمثلان المؤلف نفسه !! — في ازدواج الشخصية — الروحية والمادية — يوم كانت تتصارع في قلب المؤلف — ابن العشرين وما حولها — تيارات المثالية والدنيوية... الفكرية والعاطفية... الشاعرية والمادية — فخرجت من هذا الصراع تلك الصور .. والحوار .. والتلاحم والصدام ... وان كانت تبدو للقارىء صورا وشخصيات روائية منفصلة من صنع الخيال .. وكما تعلمون — غير مطلوب من (القصاص) ان يكشف للقارىء كل ما يرمز اليه من صور وكلام — وعلى كل حال — فان هذه الرواية الرومانسية من آثار الشاعرية التي عاشها المؤلف طيلة الشباب — مؤلفها شاب واشخاصها من الشباب ... وقراؤها من الشباب — يرحمها الله ويرحمهم جميعا !! ...

امـا المقالة التي قراتموها في « المجلة الجديدة » — يوليه ١٩٣٨ — عن مشروع الفنان النرويجي هنريك كريستيان اندرسون — ومدينته العالمية — (الطوبوية) — فكانت ايضا أعجابا بحلم فنان عرفته وراسلته — وضاع مشروعه في تيار الفاشية الموسولونية — كما ضاعت ثروته ثم حياته — وحاولت تكملة ختام قصته في مجلة « العالم العربي » الشهرية التي كان يصدرها الصديق « اسعد حسني » بالقاهرة — وذلك في مقالة بتاريخ ١٩٥٨/٢/١ ثم اشرت اليها بمجلة « الادب » لأمين الخولي عام ١٩٦٢ — قصة واقعية ختامها الحرب العالمية — كسائر الاحلام (اليوتوبية) ونسي الرجل .. ومشروعه ! ...

اما عن ذكرياتي الخاصة فأتمنى تدوينها كما فعل مئات الكتاب من الشيوخ والشباب وما زالوا يدونون — انما هو فتور الهمة والتاجيل ... والتسويف ... نفسي ان اكون عند حسن ظنكم فأنشر منها ما تيسر بصحيفتنا (اخبار دمياط) ... مهد الذكريات ...

واحس انا ايضا انني اطلت فأعفيك ولو مؤقتا من هذه الثرثرة !

والى اللقاء في اسعد الاوقات — ولك يا اخي الاديب العزيز صادق التمنيات والدعوات — دمتم للمخلص نقولا يوسف .

ورجعت الى مجلة (العالم العربي) اقرأ تفاصيل مشروع الفنان النرويجي (هنريك كريستيان اندرسون) بقلم اديبنا الراحل وكان بعنوان (في عالم السلام — الفنان المليونير داعية الاخاء الانساني) جاء فيه : كان هذا عام ١٩٣٨ حين عرفت هذا الفنان النرويجي العجيب ... وكان يومذاك شيخا في السبعين اضناه الجهاد والبذل ، وخفت صوته وسط ضجيج المتأهبين للحرب العالمية الثانية .

درس (اندرسون) فن النحت وفن المعمار ورأى ان خير وسيلة لمنع الحروب وضمان التعاون بين الامم هو في تشييد مدينة دولية ذات موقع مختار تتكفل ببنائها جميع الدول مشتركة لتكون عاصمة العالم ، وكعبة زعمائه وعلمائه وغنائيه وادبائه ، ليعملوا يدا واحدة من اجل منفعة الجنس البشري وتطوره وتصبح هذه المدينة العالمية بمثابة رأس العالم المفكر الذي به يعمل العقل العالمي وينتج خير الثمار ...

وجمع (اندرسون) الرسوم والخرائط وصور التماثيل والنماذج والابنية ، التي سوف تحتوي عليها عاصمته العالمية وعلق عليها بقلمه وطبعها في كتاب انيق كلفته النسخة الواحدة ثلاثين جنيها وارسله الى كل ملوك الدول وحكامها وبرلماناتها وجامعاتها في انحاء العالم ! فلقيت فكرته كل ترحيب ... وظل اكثر من ربع قرن يطبع الكراسات والنشرات للدعاية الى تحقيق عاصمة للعالم وما يتضمنه المشروع من مبادىء الوحدة العالمية والسلام ...

وقد كان لأديبنا الراحل حظ الاتصال بهذا الفنان الانساني العظيم فأرسل اليه عددا من النشرات المصورة والكراسات .. كما بعث اليه بخطاب جاء فيه :

... يسرني ان ادرج اسمك كعضو في (جمعية الضمير العالمي) ولي كل الامل ان تعمل ما استطعت من اجل تعريف بني وطنك بالفكرة وبالمثل الاعلى لمدينة الاتصال العالمية ، وارسل اليك كطلبك بعض نسخ من مقالات كتبت من المدينة العالمية وتفاصيلها العملية والمزايا التي تعود على البشرية منها ، واكون سعيدا اذا ترجمت او نشرت اي جزء منها ، ومع احسن تمنياتي لعملك الباهر ، ومع تحياتي ارجو ان اظل المخلص ، هنريك اندرسون .

ويمضي اديبنا الراحل في وصف هذه المدينة العالمية وتفاصيلها ثم يختم مقاله بقوله : ثم تبددت خيالات اندرسون الشعرية ... واستيقظ الشيخ على صوت نفير الحرب العالمية الثانية وكان يتمنى الا تحدث ...

وفي ١٩٧٥/٣/٢٠ تصلني اقصر رسالة كتبها الي ، يتحدث فيها عن تجربته مع (البريد) ، ويعبر في اشارة عابرة عما يحس به من ضيق .

عزيزي الاديب الجليل ...

تحية واجلالا . راجيا لكم وافر الصحة والحياة السعيدة .. كنت متغيبا بالمعادي ضواحي القاهرة منذ عشرة ايام في زيارة كريمتي هناك — ولدى عودتي امس الى منزلي بالاسكندرية وجدت خطابكم المؤرخ في ٣/١٠ — وعلمت فيه ان رسالتي المرسلة اليكم حوالي ٢٠ فبراير الماضي ردا على رسالتكم الاولى المؤرخة في ٢/١٧ — لم تصل حتى ذلك التاريخ (٣/١٠) ! ... ولقد تلقيت اليوم خطابا من الصديق (الاستاذ وديع فلسطين) يقول ان رسالتي الاخيرة اليه ردا على رسالته تسلمها بعد عشرة ايام — ويظن انها ارسلت على ظهور الابل من اقصى البلاد ! — ولم تكن الشكوى الاولى منه ، ومن سائر اصدقاء القاهرة ! — رحم الله الصديق الاديب سمير وهبي — من مصر الجديدة — الذي فقدناه يوم ١٠ هذا الشهر — لطالما شكا لي من ضياع الرسائل ...

ولدى عودتي تلقيت ايضا عدد مارس الحالي من مجلة (الاديب) البيروتية وبه مقالتكم الانسانية الرائعة المعنونة : « استيقظ وعش حياتك كلها » وقد سعدت بمطالعتها . وليتها « توقظني » كي « اعيش » هذه البقية الباقية من حياتي « الضائعة » في « الصراع » المؤبد مع الحياة الدنيا .. !

ولك يا اخي الاديب الجليل صادق الدعوات وخالص التحيات ..

والى اللقاء في اسعد الاوقات ، دمت للمخلص ، نقولا يوسف .

وارسلت اليه بتاريخ ٧٥/٣/٢٩ اقول له انني بعد قراءة روايته الطويلة (الهام) احسست انها ترجمة ذاتية تتناول مرحلة من حياة مؤلفها وانها رحلة في قلبه وعقله ... وسألته اذا كان قد عدل فيها في طبعتها الاولى عام ١٩٣٧ ؟ او في طبعتها الثانية عام ١٩٦٥ ؟ ام انه نشرها كما كتبها وهو في العشرينيات ، وسألته ماذا يكتب لو انه اعاد كتابتها من جديد ووضع فيها تجاربه الناضجة في الحياة والادب والفن .

فتسلمت رسالته المؤرخة في ١٩٧٥/٤/٢٩ :

عزيزي الأديب الجليل ...

تحية المودة والتقدير — ولمناسبة عيد القيامة المجيد — وعيد الربيع السعيد — ابعث اليكم بخالص التمنيات وصادق الدعوات ... لتكن ايامكم اعيادا وحياتكم نورا وامجادا ..

مضى شهر كامل على تسلمي رسالتكم المؤرخة في ٣/٢٩ — كرت ايامه كعادتها لا تلوي على شيء ... لعلي تمهلت حتى يهل موسم الاعياد فابادر الى التهنئة ... ولعلي رايت ان اصحب هذه الرسالة بالقائمة المرفقة — وبها ما وقع من اخطاء مطبعية كثيرة في طبع رواية (الهام) حين اخرجتها في غيبتي « الدار القومية للطباعة والنشر » — وكان الصديق ابراهيم المصري قد ارسل الى هذه الدار طبعتها الاولى الصادرة عام ١٩٣٧ عن « مطبعة المجلة الجديدة — سلامه موسى » بعد مناقشة فلسفية في باب التواضع والدعاية والنشر وما اشبه ! .. وهأنذا ارسل اليكم هذه « القائمة » الحافلة املا في تصحيحها في النسخة التي بين يديكم — ان وجدتم ذات يوم ساعة فراغ تضيعونها في مثل هذه اللعبة ! ...

... فكما ترون ان هذه الرواية التي كتبها شاب في العشرينيات وطبعت اول مرة عام ١٩٣٧ — ما زالت متسمة بطابع الرومانسية والشاعرية والايديولوجية التي كان عليها شاب شاعري النزعة تسيطر عليه عوامل السن والعصر والوسط ... وقد سبقها ديوان من الشعر المنثور : « نسمات وزوابع » — نشره عام ١٩٢٧ للشاب نفسه : المرحوم الياس انطون الياس (صاحب المطبعة العصرية بالفجالة) — وكان مصطبغا بالروح الشاعرية ذاتها وطبقت عليه المقاييس عينها — قبل ان يحول الى « متحف الذكريات » !! واجابة على اسئلتكم اقول اني لا احب اعادة هذه البواكير ، ولا احب ان اضيف اليها شيئا او اعدل فيها اشياء ، لانها خرجت عن ملكيتي وعن اختصاصي — كما لا يستطيع المرء ان يغير ويعدل في ذكريات صباه

وشبابه ... ويخطىء من يحاول التعديل والتصويب في سرد سيرته الذاتية او حتى الدفاع عن اخطائه امام قرائه — كما يفعل البعض من كتاب الترجمة للنفس ... وكنت غير متفق مع صديقي المرحوم محمود تيمور حين كان يغير ويبدل في سرد قصصه الباكرة — ولا اقول ينقح اللغة — كلما اعاد طبع قصصه .. وان كنت اوافق سلامه موسى على رايه في ان للكاتب الذي يتطور فكريا الحق في ابداء آرائه المتطورة في كتاباته التالية ... وهذا ما يحدث للكثير منا وبخاصة لمن يتقدمون في السن ... اما عن « اليوتوبيا » التي تراتم انها نشرت لي — فاظن ان المقصود بها كتاب عنوانه « الفردوس » نشرته لي « مكتبة الوفد » بالفجالة عام ١٩٢٢ — وكنت كما ترون غلاما في الثامنة عشرة — متسرعا في الكتابة والنشر ! — ويصور حلما طوبويا لفتى شاعر يزعم تحقيقه بجزيرة خيالية ... وخرج الكتاب في اسلوب الشعر المنثور — وبالرغم من ضعف قيمته فقد نفد من الاسواق بحكم الاقدمية ، ولم اعد اعثر على نسخة منه على عربات اليد ، او على سور حديقة الازبكية — ومع ذلك فاذا عثرت عليه او على احد اخوته يوما بادرت الى ارساله اليكم للفرجة تلبية لرغبتكم — وان كنت قليل الامل في العثور على ما اكل عليه الدهر وشرب — ما علينا — لقد استنفد الحديث عن قديم الذكريات طاقة الرسالة — وكنت اود ان ابداها بذكر السبب الاول في تاخير كتابتها شهرا كاملا — فان بعض الاصدقاء الادباء بالقاهرة والاسكندرية راى في آخر العمر ان يشغلوا فراغي المزعوم — (فراغ المعاش) — في كتابات واجتماعات وندوات متلاحقة .. فرشحني القاهريون لوضع دراسة عن الشاعر المرحوم عبد الرحمن شكري في ثلاثين صفحة — وفي ثلاث نسخ على الآلة الكاتبة — لضمها الى مجموعات لجنة الشعر في المجلس الاعلى للفنون والآداب عن الشعراء المحدثين — كل مجموعة خمسة شعراء — وامهلوني شهرا واحدا ... كما ضمني السكندريون الى « مجلس الثقافة الاعلى لمحافظة الاسكندرية » والى احدى لجانه الادبية ... والى لجنة التراث السكندري .. وما شاكل ذلك — وتوالت الاجتماعات ... واللجان .. والمناقشات — ! وانصرم مارس وابريل وما زلنا في وضع البرامج والتخطيط ... واما رسائل الاصدقاء والمعايدات والبطاقات — فمتروكة لاوقات الفراغ والمصادفات ! .. فمعذرة يا صديقي الاديب العزيز من اي تأخير او تأجيل ثم من هذه الثرثرة التي اصابتني عدواها من رسائل الصديق وديع فلسطين — ! والى اللقاء في اسعد الاوقات — ولكم صادق التمنيات والتحيات ، من المخلص ، نقولا يوسف .

بعد كتابة هذه الرسالة سعدت بوصول معايدتكم المؤرخة في ٤/٢٨ فشكرا جزيلا وتحية خالصة ، نقولا .

في يونيو ١٩٧٥ ذهبت الى الاسكندرية للاستجمام وكان مرجوي ان التقي بفقيدنا العزيز شخصيا ولكن منعني عن هذا ان اقتحم عليه داره دون ميعاد سابق واكتفيت بأن اكتب له خطابا من الاسكندرية متمنيا ان يتاح لي الظرف المواتي لاحقق رغبتي في اللقاء القريب .

فجاءني رده بتاريخ ١٩٧٥/٨/٥ يقول فيه :

اخي الاديب الجليل ...

سعدت برسالتكم المؤرخة في ٦/٥ الماضي — والمكتوبة كما ذكرتم « وسط ضغط العمل ... الى جانب وعكة نفسية سلبتكم كل نشاط فكري ... » وارجو ان تكونوا الآن — وقد سكنت هذه العواصف — قد استرددتم سكينة النفس .. والراحة ... والسلام ..

لقد بلونا طويلا — نحن « عمال التراحيل في حقل التربية والتعليم » امثال هذه المشاكل والمشاغل .. والمتاعب ... ما التهم خمسة وثلاثين عاما من زهرة العمر ! .. ولم يخلصنا من الاغلال غير التقاعد ! .. وعلى راي صديقنا شاعر دمياط : (خرجت من الممات الى المعاش !) مد الله في حياتكم حتى « المعاش » وما بعده من سني الراحة والتفرغ لما تحبون من آداب وفنون .. ومنحكم العافية والقوة في تلك السنين ...

انتظرت هذه الاسابيع العاصفة كي اكتب اليكم في هدوء ... غير ان لموسم الصيف عندنا (بالاسكندرية) خواصه العجيبة ! — قد تعرفونها مثلي — فهو لا يقبل علينا بخيله ورجله الا وفي ركابه الهرج والمرج ، وطوابير القادمين من كل فج ! ويتقاطر ادباء القاهرة والاقاليم على الثغر زرافات ... وينزل الاهل ضيوفا مكرمين في جماعات ... وتبدا المواعيد واللقاءات ، والزيارات والمصادفات ! وتعقد الجلسات والندوات في قصور الثقافة والكازينات !! وقد يحلو هذا لابن العشرين ، ولكن ما العمل مع ابن السبعين ! ؟ ...

ما علينا ! — لقد استطعت اخيرا ان اخلو بنفسي هذه الساعة كيما افيدكم على الاقل ان رسالتكم وصلت الي سالمة ، ولم تضع في البريد كغيرها — ومنها مجلة « الاديب » عددان ...

وكنت قبيل هذا الصيف قيدت بعض الخواطر في باب « الذكريات » وارسلتها تباعا الى صحيفتنا الطيبة « اخبار دمياط » لعلي اواصل كتابتها اذا طاب المزاج وحل الصفاء ، وسمح الناشر والقراء ! ولعلي اظفر برايكم في رسالة قادمة عن هذا النوع من الموضوعات — ؟ وكنتم قد رايتم لي ان اكتب بعض الذكريات — وهي كثيرة الشعب والطرقات .. ! — وكانما كنا على موعد بعد فترة صمت طويلة للكتابة في (اخبار دمياط) اذ التقيت بكم على صفحاتها منذ عهد قريب في مقالتكم عن كتاب الدكتور مصطفى محمود « الحب والحياة » — وارجو هذا اللقاء دائما — ثم شكرا جزيلا يا اخي الكريم على ما ذكرتم عن كتابة (امية معي ..) ولست هنا بالمتواضع القائل : « لا داعي لهذا التعب ! .. » اذ كان من رايي دائما ان

قلم الكاتب ملك للناس يبدون فيه الراي كما يريدون — ما دام يكتب لهم لا لنفسه — وقد كتبت عن عشرات من كبار الادباء وصغارهم تطبيقا لهذا المبدأ ..

ثم لا تخش ايها العزيز ان تثقل علي — كما تقول — برسائلك فانني وان كنت لم ازل في دوامة الصيف — فان الهرج سيهدأ مع آخر هذا الشهر — وان رسائل الاصدقاء الادباء — تلطف الازمات وتصبح كالدواء ! ...

واذا حضرت الى الاسكندرية — كما فعلت في هذا الصيف — فلا تضن باللقاء — وان شئت فرقم تلفوني في اعلى الصفحة تحت تصرفك — ولكم يا صديقي الاديب الجليل خالص المودة واذكى السلام — والى اللقاء في اسعد الاوقات — دمتم للمخلص ، نقولا يوسف .

وفي ١٩٧٥/٨/٢٦ ارسلت اليه اقول : (سرني انكم بدأتم في كتابة ذكرياتكم ... انني بالرغم من انني اعرف الشيء الكثير عن استاذنا نقولا يوسف من طول قراءتي لكتاباته منذ ما يقرب من اربعين عاما الا انني احب واتوق الى قراءة كل ما تعمق معرفتي بكم وبحياتكم وجهادكم وصولاتكم الادبية في اكثر من نصف قرن ، بقلمكم المبدع وبواقعيتكم الرصينة ... قرأت الاجزاء الستة الاولى التي نشرت من ذكرياتكم(٢) — حتى الآن — فوجدت فيها ذكريات اديب عظيم احب الناس واحبه كثيرون في هذه الحياة .. انها سجل للصداقة والوفاء كما انها تحمل ملامح الحياة في جيلنا ... انها سرد جميل بحاسة تاريخية وفنية ورائعة ... الا انه لم يظهر فيها — حتى الآن — الجانب الذاتي الا لماما ... ترى هل تكون كلها حديثا عن الآخرين ؟

وفي ١٩٧٥/٩/٢٠ جاءني خطابه الذي يعرض فيه رفع الكلفة بيننا الامر الذي سرني كثيرا ورسخ صداقتنا وجعل كلا منا يفتح قلبه للآخر ...

عزيزي الاديب الجليل ...

تحية المودة والوفاء والتقدير ... تلقيت رسالتك — [وسأخاطبك من الآن بلفظ المفرد الاخوي العائلي ... ؟] المؤرخة في ٨/٢٦ .. وهممت بالكتابة اليك ، فاذا بصحيفتنا « اخبار دمياط » تصل الي متمهلة كعادتها هذه الايام وتقطع الرحلة في اسبوع .. وعذرنا مجلة « الاديب » التي لم ارها منذ شهرين — فاذا وصلت سالمة حمدنا الله على السلامة وكنا دائما من الشاكرين ! والحق لقد سعدت بمقالتك النقدية التحليلية ... الكريمة ... الرائعة التي تناولت جانبا من حياتي ... وكان للبحث بقية احببت متابعتها ، فلما لم يصل عددها الى اليوم ، خشيت ان اتأخر ايضا عن واجب الشكر مهما كان العجز عن ادائه ! .. وقد يكون السكوت عن اداء الشكر احيانا ابلغ من سرد الالفاظ المألوفة ! ...

وقديما وددت لو اهديت اليك ما نشر لي من مطبوعات .. غير ان جهلي بعنوانك الذى لم اكتشفه حتى عهد قريب ، حال دون تحقيق هذه الامنية ... فلما ظهر العنوان كانت هذه المطبوعات قد تبعثرت وطواها القدم ولحق حديثها بقديمها .. ومع ذلك فخشية ان يغتال البريد هذه « التذكاريات » فسوف احتجز ما قد اعثر عليه منها على « عربات الكتب القديمة » حتى اذا سمح الزمان بلقاء قريب سعدت بتقديمه اليك شاكرا — « بيدي لا بيد عمرو ! — » والحكاية كلها تدور حول « التذكار » على النمط المألوف .. وهنا يقول المثل العامي : « بصلة الحبيب خروف ! ؟ » .

ثم يسرني ما قلت انك شرعت في فرز كتاباتك المنشورة ليجد بعضها طريقه الى المطبعة ... والمعروف ان القاهرة هي المكان الوحيد في بلادنا الذي تتمركز فيه الطباعة والنشر والاذاعة .. ! وعلى الرغم من غلاء الورق وتدلل الناشرين وما شاكل ذلك — كما ذكرت في خطابك — فان اصدقاءنا الادباء بالاسكندرية لا يخفون دهشتهم عندما يمرون بباعة الصحف والدوريات وقد فرشوا ميدان محطة الرمل وسائر الميادين بمئات الكتب الجديدة الملونة التي تنهال عليهم كل يوم من القاهرة وبيروت حاملة اعجب العناوين ... ويرون بينها نحو عشرين كتابا جديدا لمؤلف واحد مثل انيس منصور ومنها مجلد كبير عن (حياته وادبه) ... وامام هذا الطوفان من الورق المطبوع يتساءلون عن مكانهم ومصيرهم ؟ ...

ثم اشكرك على ما وصفت به سلسلة (الذكريات) التي انشرها بجريدة (اخبار دمياط) ... وصدقت حين قلت : «لم يظهر فيها حتى الآن الجانب الذاتي الا لماما ...» — يبدو لي انني لا اجيد الحديث عن نفسي خارج الرسائل الخاصة ! ... وانني ما زلت متأثرا بمهنة التعليم التي افنيت فيها العمر فأوثر الناحية الموضوعية فيما هو تاريخي لعل المتحدث اليه يخرج بقدر اوفر من المعرفة عن المتَحَدث عنه ! وبخاصة اذا كان جديرا بالتعرف اليه .. ثم ارجو بعد ذلك ان احقق رغبتك الاخوية في الاستزادة من الجانب الذاتي في السلاسل القادمة من هذه « الذكريات » ؟

وختاما اكرر جزيل الشكر راجيا لك الصحة والعافية .. ووافر الانتاج الادبي — ولك خالص التمنيات وصادق الدعوات وازكى التحيات ... ، دمت للوفي المخلص ، نقولا يوسف .

وفي ١٩٧٥/١٠/٨ تسلمت منه الرسالة التالية :

عزيزي الاديب الجليل ...

تحية المودة والوفاء — راجيا لك وافر الصحة والعافية .. ولعلك قضيت هذه العطلة الصيفية في راحة واستجمام قبل القيام بالرحلة المدرسية المضنية .. ولعلك تلقيت رسالتي التي بعثت بها اليك منذ ايام — وحاولت ان اعبر فيها عن شكري على ما طوقت به عنقي من فضل في مقالتك الرائعة المنشورة في « اخبار دمياط » عدد ٨

(٢) بدأ الفقيد في نشر ذكرياته عام ١٩٧٥ تحت عنوان (من جراب الذكريات) بصحيفة اخبار دمياط .

سبتمبر .. ثم ورد الي عدد ٩/٢٢ وبه بقية البحث الرائع عن بعض اعمالي وعني والذي اعد اجمل واعمق ما كتب في هذا ... فانا هنا يا اخي الاديب الكبير — اكرر الشكر والاعجاب والتقدير .. دمت للادب نصيرا ... وللقلم صديقا قديرا .

وادعو الله ان يعينك على اخراج آثارك الادبية ومؤلفاتك المطوية تباعا وان يمد في عمر عبده « قليلا » ريثما يطلع على بعضها منشورا ويشيد بفضلها قدر الاستطاعة ...

ازكى تحياتي اليك وصادق الدعوات والتمنيات ، والى اللقاء في اسعد الاوقات ... دمت لاخيك الوفي ، نقولا يوسف .

اهدى الي فقيدنا الراحل مجموعته القصصية (هم وهن) وارسل الي في اول نوفمبر ١٩٧٥ يقول :

عزيزي الكاتب الجليل ...

تلقيت رسالتك المؤرخة في ١٠/١٥ — وتصادف ان عثرت منذ بضعة ايام في احدى مكتبات الاسكندرية — على نسخة « اثرية » من مجموعتي القصصية « هم وهن » المطبوعة هنا عام ١٩٦٢ فبادرت بارسالها اليك — (مطبوعات مسجلة يوم ١٠/٢٦) لعلها وصلت اليك سالمة .. والقصد هو « التذكار » كما تجري العادة بين الاصدقاء .. فهم الذين يعنون بقراءة كتاباتنا .. وهم الجديرون باهداء مصنفاتنا ...

وكنت قد نشرت معظم اقاصيص هذه المجموعة في الخمسينيات ببعض الصحف والمجلات — وبخاصة جريدة « القاهرة » — المحتجبة — حين راس تحريرها الصديق القديم حافظ محمود ، زميلي في التحرير بصحيفة « السياسة الاسبوعية » ايام الشباب ... لهذا سميتها « اثرية » لانها مكتوبة منذ ربع قرن ... وما اسرع مرور الزمن ! ... وقد سبقتها الى النشر مجموعتان اخريان سميتهما : « دنيا الناس » — ١٩٥٠ و « مواكب الناس » — ١٩٥٢ ... ارجو ان ارسلهما اليك في القريب ... كما ارجو ان الحق بهذه الثلاث — مجموعة رابعة معدة للطبع ... ولا اعتقد ان في العمر بقية تتسع لكتابة قصص اخرى .. فلقد غامرت في هذه السنوات الاخيرة بكتابة « التراجم » ولا سيما للادباء — زاعما انها فرع من شجرة القصة ... والمسالة فيما يبدو مزاج وهواية !

وقد اطلعت على كلمتك في (اخبار دمياط) هذا الاسبوع عن الفقيد العزيز دكتور عزيز برسوم — وفاء نادر ... ومأساة الاوفياء انهم لا يستطيعون ملاحقة الزمن حين يفرق بينهم وبين اعزائهم الراحلين تباعا — فما ان يبدأوا في رثاء احدهم حتى يفاجأون بفقد الآخر — وهكذا تتراكم الكلمات المكتوبة على الورق فلا تنشر — كما تتراكم الذكريات المنقوشة في القلب ولا تقبر ! ... وارى معك ان جمع آثار الفقيد في مجلد او اكثر هو خير ما يرضي روحه في سمائها وما يبقى على ذكراه في ارضنا ...

اما ما ذكرت عن مجلتنا الطيبة « الاديب » ، وصاحبها العزيز « البير اديب » فان المجلة كما قلت لم تصل الى احد بمصر بعد اغسطس الماضي — ؟ وقرأنا جميعا ان نوافذ بيته حطمها الرصاص .. ثم دارت الشائعات ان الصديق البير اصيب في هذه المذابح (والله اعلم) ؟ ! وقد كتبت الى الاخ وديع فلسطين بالقاهرة مستفسرا فلم يات منه رد بعد ... وعلى ذكر « الاديب » كنت قد ارسلت اليه كلمتين لنشرهما في (بريد الاديب) — عن الكاتبين الصديقين الراحلين : اسعد حسني — (الذي راس تحرير مجلة « العالم العربي » بالقاهرة عدة سنين قبل عمله بجريدة الجمهورية) وكان اخا وفيا مخبا ... وتعذب كثيرا في اواخر حياته ... والصديق السكندري « حسين رشدي » صاحب التمثيليات الاجتماعية الاذاعية — يرحمهما الله .

وعن سؤالك عن احب كتبي الي ؟ — اجيبك بان هذا امر تصعب الاجابة عليه عندي ! — فامامي عدد من كتبي المطبوعة — واكثر منها لم يزل مخطوطا — ولعل بين المخطوط ما هو احب الي من المنشور لسبب او لآخر ؟ ! فقد نشرت فيما مضى من السنين مثلا عشرات المقالات عن اصدقاء ادباء اعزاء ولم تجمع في كتب — تكون حبيبة الى القلب بذكرياتها الخاصة ... اجاب احد الكتاب مرة (لا اذكره) — عن مثل هذا السؤال بان مؤلفاته جميعا كابنائه متساوين لديه في المعزة .. واجاب طه حسين — فيما اذكر — بانه لا يعود الى كتاب طبع له ولا يقرؤه بعد نشره ، وقد يعني انه لا يحب المفاضلة ... ويقول جبران (فيما اذكر ايضا) — ان احب مؤلفاته اليه واهمها لم يكتبه بعد — وان قلبه مثل بركان مسدود لم يتنفس عن متصهراته .. (او ما اشبه من التعبير) .. وهذه العبارات وامثالها انما تدل على الحيرة في الاجابة عن مثل هذا السؤال .. ؟

اكتب اليك هذه السطور في احد اركاني بكازينات كليوبترا على شاطىء البحر — (كعادتي كل صباح) — وكل ما حولي هادىء رائع ... ولكنها « مداعبات » الشيخوخة تسبب ضعفا في القلب وفي البصر ... وتنعكس آثارها على النفس وعلى القلم فتخرج هذه السطور بادية الضعف كثيرة الثرثرة ! .. فمعذرة يا صديقي ما تراه في رسائلي الخاصة وفي مقالاتي المنشورة من هنات ولت وعجن ... جنبك الله اماعيل الشيخوخة بعد عمر طويل .. وتحل القوة والعافية في حياتك وفي اداء رسالتك ...

ولك دائما خالص التمنيات وازكى التحيات والى اللقاء في اسعد الاوقات . دمت للوفي المخلص ، نقولا يوسف .

وفي ٧٥/١١/١٦ كتبت له الرسالة التالية :

الاخ الكريم استاذنا الكبير نقولا يوسف

تلقيت بسرور كبير رسالتكم المؤرخة في ٧٥/١١/١ وقد غمرني بالسعادة ما فاضت به من مشاعر اخوية وما تضمنته من تجاوب كبير ... ويسعدني ان ينفذ كل منا الى اعماق الآخر .. ليتكم تحدثوني عن نفسكم طويلا وكثيرا فان هذا الحديث لذيذ وممتع .. ان معرفة نقولا يوسف الانسان لا تقل اهمية عن معرفة (نقولا يوسف) الاديب الفنان .. ان الحديث الذاتي بقلم اديب كبير مثلكم فيه متعة فكرية ... انني احب (المازني) كثيرا لانه لم ينقطع عن الحديث عن نفسه في معظم كتبه ، والقارىء الذي يهوى الادب لا يمل سماع الرجل الممتاز عندما يصدقنا القول عن نفسه ... ليتكم تفتحون لي قلبكم فاسمع كثيرا منكم وعنكم فأعيش مع فكركم وتجاربكم واحاسيسكم واهتزازاتكم مع الحياة ...

وسعدت برسالته التالية المؤرخة في ١٩٧٥/١٢/٤ :

عزيزي الاستاذ الجليل ...

تلقيت رسالتك الكريمة المؤرخة في ١١/١٦ ــ ومرت الايام كعادتها سراعا ... والحمد لله على نعمة الصحة ــ فهي ومثلها الحكمة ــ كما يقول اهل الذكر ــ من هبات الله الكبرى لعباده ... وشكرا لجدعان البريد الذين حملوا اليك مجموعة الاقاصيص سالمة معافية ... ولعلهم « يتمون جميلهم » حين ارسل اليك ما ارجو ان اعثر عليه من (حفائر) اخرى ــ ما دمت من هواة الآثار المتسامحين المتساهلين !

وكما رغبت ــ احدثك عن نفسي قليلا ــ فأقول واستطرد الحديث ــ انني كنت في الشهرين الاخيرين التمس الراحة ــ المرادفة للكسل في عرف الاصدقاء غير الطاعنين في السن ــ ولو كانت هذه الراحة في مجالسة الكتب والمجلات والصحف عملا بوصية القائل : « وخير جليس في الايام كتاب » ! وقد يدخل في باب الراحة ايضا كتابة الاقاصيص لصحيفتنا الغراء « اخبار دمياط » ... ومن ذلك ما رأيت في السلسلة الاخيرة ــ المزيج من الذكريات التاريخية والذاتية المستمدة من سجل الصبا وعهد التلمذة ... انني لم اشرع بعد ــ واخشى ان يكون قد فات الاوان ــ في كتابة ما تشير به علي من ذكريات ذاتية وتجارب شخصية ... اهو شعور باطني بان المذكرات الذاتية من « اختصاص » المشاهير وكبار القوم الذين يشتاق الغرباء قبل الاصدقاء الى معرفتها ، ويذهب اليهم الناشرون في طلبها ، ويدفعون الالوف من اجلها ؟ ــ ام هو الكسل ما يعوق الاقدام على نبشها ولمها والاعداد لنشرها ؟ ــ ام لان اذاعتها في صراحة وامانة يمس الكثير من اسماء الاحياء والراحلين ؟ .. ولسان حالهم يقول مع الشاعر :

ولا تقف زلات العباد تعدها غلست على هذا الورى بمسيطر !

وهنا يعمد القلم الى اخفاء العيوب والتستر على النقائص والاكتفاء بذكر المحاسن ؟ ! ولقد لاحظنا ان معظم كتاب التراجم الذاتية عندنا لا يجرأون على الاعتراف بمباذلهم كما جرؤ (جان جاك روسو) و (فرانك هاريس) وغيرهما ــ مثلا ــ اما خوفا من الوسط المحافظ واما تظاهرا بالبراءة ــ اهو هذا ام ذاك ام الكل مجتمع ؟ !

يحضرني الآن ــ والحديث ذو شجون ــ مثل في موضوع الذكريات والمذكرات ــ فمنذ عشر سنوات كنت جالسا في الكازينو المطل على البحر مع زميل قديم عزيز من ايام المدرسة التوفيقية بشبرا ــ هو المرحوم المستشار تادرس ميخائيل تادرس ــ وشكا من الفراغ الطويل بعد المعاش ، فأشرت عليه بكتابة ذكرياته القضائية المليئة بالطرائف والمواعظ مما كان يقصه علي ــ فأزعجه نشر الاسماء وخشي التعريض بالشخصيات الواردة في تلك القضايا ، وكان الحل البسيط لهذا المشكل وضع اسماء مستعارة للاشخاص والاماكن ــ وضربت له المثل بذكريات توفيق الحكيم في (يوميات نائب في الارياف) ــ وكيف خرجت قطعة فنية جميلة ــ وهكذا نشر الصديق تادرس كتابه « ذكريات في عالم المحاماة والقضاء » ــ عام ١٩٦٦ ولقي نجاحا ــ يرحمه الله .

ومع ذلك ارجو ــ اذا طال الاجل قليلا ــ ان انشر ما تيسر من ذكرياتي الخاصة ــ ولو في « اخبار دمياط » الواسعة الصدر ! ــ ومنذ حوالي خمسة اشهر طلب مني الصديق القديم عبد العزيز الدسوقي ــ رئيس تحرير مجلة « الثقافة » بالقاهرة ــ مقالة بعنوان (تجربتي الادبية) ــ موضوع « ذاتي » ــ فعدت الى الحيرة في التحدث عن « الذات » والزج بها وسط المشاهير والمتظاهرين ــ ولم احقق رغبته الى اليوم ــ ! .. والامر لله ... ــ اعود الى حكاية « الراحة » التي التمستها في المطالعات والتأملات ــ فاذا بأصدقاء الشباب في « لجنة الشعر بالمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة » يعيدونني الى ارض الحقائق ! بدأوا بطلب بحث من ثلاثين صفحة عن الشاعر المرحوم عبد الرحمن شكري ــ لضمه الى المجموعات التي يصدرونها تباعا عن الشعراء العرب المحدثين ــ فلما ان ارسلت اليهم البحث .. وحاز القبول ، عادوا فطلبوا (كتابا) عن « الشعراء اليونانيين الذين نشأوا بمصر وتأثروا بها وكتبوا عنها » ... وشرعت في التنسيق والتبييض ! فاذا (بمجلس الثقافة لمحافظة الاسكندرية) المنشأ منذ بضعة اشهر والذي ضمني الى لجانه يقرر اصدار مجلة جامعة باسم « امواج » تظهر في يناير القادم ويطلب مقالة ؟ .. ثم زارني صحفي من القاهرة يقول انه في طريقه الى سلطنة عمان ليرأس تحرير مجلة شهرية هناك باسم « السراج » ــ ويرغب في مقالة ! ... بينما غضب مني اصدقاء العراق لاني لم ارسل اليهم شيئا

لمجلتهم : (الكتاب) التي يصدرونها شهريا ببغداد وقطعوا عني اعداد المجلة المهداة — كما استاء اكثر من عشرة من كتاب الاقطار العربية وشعرائها ممن ارسلوا الي مؤلفاتهم فلم اكتب عنها نقدا واكتفيت برسائل الشكر والثناء ؟ ! — وهذا قلت : « وداعا ايتها الراحة » ! ؟ على وزن : « وداعا ايها الملل » ؟ ! — عنوان كتاب لصاحبنا الصحفي .... مؤلف الستين كتابا والبقية تأتي ؟ !

اما مجلة « الاديب » الحبيبة — فانها لا تباع بالاسكندرية منذ عام مضى ، وان كانت تأتي بالبريد الى بعض اصدقائها — ولم نرها منذ اغسطس ؟ ولا نعلم شيئا من انباء صاحبها العزيز ؟

— أرأيت كيف اطلت عليك هذه المرة بالثرثرة والمفاخرة ! ؟ ذلك لاني سأريحك منها حتى عيد الميلاد القادم (٧ يناير) — وكل عام وانتم بخير — اننا سنتغيب عن الاسكندرية من يوم ١١ ديسمبر الحالي حتى الثالث من يناير ... ونرجو ان نمر بالمعادي ضواحي القاهرة لزيارة ابنتنا الوحيدة المتزوجة هناك — وحيث لا نستطيع الكر والفر في مآزق القاهرة وطرقاتها العامرة .. ونرابط في « المعادي » طلبا للسلامة وان كانت تثني المرء عن المعالي .

فالى اللقاء يا اخي الاديب العزيز — في بطاقة المعايدة ان شاءت المقادير ، ولك خالص التمنيات وصادق الدعوات ... والمعايدات ... دمت للمخلص ، نقولا يوسف .

وفي ١٩٧٥/١٢/٣٠ ارسلت له خطابا قلت فيه :

... انني اعرف جيدا ان الكتابة الذاتية الصريحة من اصعب الامور ... انني حتى في مذكراتي الشخصية التي لا يطلع عليها غيري .. اشعر بحرج شديد وانا اكتبها (عارية) مشفقا على نفسي وعلى من احبهم ... اننا في شرقنا العربي لا نفكر بلغة الواقع العصري الذي نعيش فيه .. ولم تتحرر تراجمنا الذاتية تماما من عبودية النماذج التقليدية .. .والرجل المشهور عندنا يخفي كل نقائصه وقد يضفي على نفسه من الفضائل ما ليس فيها ، ويظهر انه مخلوق من (طينة) غير الطينة التي خلق منها البشر جميعا ... وعلى ذكر الصراحة في التراجم .. لقد تردد في بعض خطاباتكم لي ما فهمت منه انه كانت لكم صلة وثيقة بأستاذنا سلامه موسى .. ترى هل صور (سلامه موسى) نفسه صورة حقيقية في كتابه (تربية سلامه موسى) ام هناك ما قد اخفاه وتعرفونه عنه ؟ ترى هل كتبتم عن (سلامه موسى) كما كتبتم عن كثير من الادباء الاصدقاء ، والذين عرفتموهم عن كثب ؟

ولم يمض وقت طويل حتى تسلمت منه في ٧٦/١/١٠ آخر رسالة : بعدها رحل عن عالمنا ...

عزيزي الاستاذ الجليل ...

لكم في عيد الميلاد المجيد ... وهذا العام الجديد السعيد — اطيب التمنيات وصادق الدعوات باليمن والتوفيق والعمر المديد ... ولتكن ايامكم اعيادا — وحياتكم نورا وامجادا ..

كنت متغيبا عن داري بالاسكندرية اكثر من عشرين يوما .. وعدت هذا الاسبوع — وتلقيت رسالتك المؤرخة في ٧٥/١٢/٣٠ نشكرا جزيلا على معايدتك الرقيقة وتمنياتك الاخوية ...

امضينا اياما في ضيافة ابنتنا وزوجها في المعادي .. (ولاسباب صحية من مختلف الاصناف) ... لم يستطع اخوك الشيخ لقاء صديق او قريب في القاهرة — كما حرن تلفون المعادي ولم يسعف في مهاتفة الاصدقاء — ومرت الايام في خمول واعتكاف واستشفاء ! .. وما زلت منذ عودتي في صراع مع الوعكات وفي عجز عن النشاطات ! ..

وبعد — فكما اعتدنا تبادل الآراء الذاتية — والتعليق على بعض المسائل الادبية — ارى معك :

١ — ان موضوع « الترجمة الذاتية » — الاتوبيوغرافي باب من ابواب الادب جدير بالاهتمام وبخاصة في ادبنا العربي — وكما قلت : ان تراجمنا الذاتية لم تتحرر تماما من عبودية النماذج التقليدية — ولهذا ارى ان توضع فيه الدراسات النقدية والتحليلية — في مؤلفات لا في مقالات او تعليقات ... واذكر انني قرات منذ بضع سنوات كتابا للدكتور شوقي ضيف — بعنوان : « الترجمة الشخصية » — ولكن يبدو اننا في حاجة الى كتاب واف اكبر يتسع لنقد هذه العشرات من كتب التراجم الذاتية والمذكرات والذكريات — مما يملأ مكتباتنا واسواقنا — ويا حبذا لو توفرت على وضع كتاب في هذا الموضوع — ما دام لديك اهتمام بالبحث في هذا الشأن — وعن نفسي — لو عدت الى الوراء عشر سنين لحاولت وضع مثل هذا الكتاب النقدي المفيد (ولكن يبدو ان الوقت قد فات !) .

٢ — وما اشرت اليه عن صلتي بأستاذنا « سلامه موسى » — اذكر لك انها كانت صلة وثيقة — بدات بقراءتي كتاباته ايام صباي ثم تعرفت به شخصيا عام ١٩٢٧ وظللنا صديقين الى يوم وفاته في صيف ١٩٥٨ — نتزاور ونتراسل ... واكتب في (المجلة الجديدة) منذ عامها الاول (١٩٣٠) الى ان احتجبت ... وفي مجلاته الاسبوعية وجريدته « اليومية » — وفي مطبعته الخاصة طبع كتابي « الحياة الجديدة » — ١٩٣٦ — ورواية (الهام) ١٨٣٧ ، وتحدث سلامه موسى عن (الهام) عقب صدورها من محطة اذاعة القاهرة واهدى نسخة من كتابي « الحياة الجديدة » الى كل مشترك في مجلته عامذاك — ومع ذلك فلم اكتب عن سلامه موسى فيما اذكر غير مقالة بمجلة (العالم العربي) عدد ١٩٥٨/٩/١ وكان يصدرها صديقنا المرحوم اسعد حسني — احد تلاميذ سلامه موسى —

والسبب في ذلك انني كنت وما زلت — ارجو وضع مؤلف شامل عنه — اضمنه النواحي الذاتية والموضوعية — وكعادتي التعسة في التسويف والتأجيل ، مر اليوم على وفاته — كما ترى — سبعة عشر عاما — والمسودات والمراجع في اضابيرها مكومة — وامامي اربعون كتابا بقلم سلامه موسى قرأتها جميعا — ومنها كتابه عن نفسه : « تربية سلامه موسى » وفي خلال تلك السنوات ظهرت ثلاثة كتب عن سلامه موسى وضعها تلاميذه — اعني كتاب « سلامه موسى وازمة الضمير العربي » لغالي شكري ١٩٦٢ — و (سلامه موسى المفكر والانسان) لمحمود الشرقاوي ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ — و (سلامه موسى وعصر القلق) لفتحي خليل ١٩٦٥ — ثم ملحق مجلة « الطليعة » عدد اغسطس ١٩٦٥ عن (سلامه موسى والفكر الثوري المعاصر) لعدد من الكتاب — كما كتب عنه في الصحف والمجلات اكثر من مئة مقالة ودراسة — كما تعلم ...

اما عن سؤالك عن كتابه : (تربية سلامه موسى) ومدى ما فيه من صدق ، فقد كان رحمه الله صادقا في تصويره لنفسه .. ولم يعب الكتاب — كما قلت له مرة — غير انجازه الشديد — وكان جوابه ان ناشره (طه حسين) رئيس تحرير مجلة الكاتب المصري يومذاك هو الذي حدد صفحاته اقتصادا في نفقات الطبع .. ولهذا اضاف سلامه موسى الى طبعة عام ١٩٤٨ فصلا في طبعته الثانية ١٩٥٨ — ومع ذلك ظل الكتاب موجزا — واعتقد ان سلامه موسى — على الرغم من جراته المشهورة لم يتوسع في شرح عقيدته الدينية — او صوفيته كما كان يدعوها — تجنبا لحرج الناشرين — وكان له كما تعلم الكثيرون من المحافظين المتربصين الذين اتهموه بالالحاد وبالشيوعية والتناقض وبالتعصب (للفرعونية) ... ولم يزل بعضهم الى اليوم يكتب عنه انه كان من الدعاة الى اللغة العامية ومن الداعين الى الفرنجة والانفتاح على الاوروبية ... الخ ... وقد حاربه هؤلاء دون دراسة او تعقل ...

٣ — اما عن اخبار صديقنا البير اديب فما زالت مقطوعة ؟ ولم يصدر « الاديب » منذ عدد سبتمبر .. وجاءني من الصديق وديع فلسطين بمصر الجديدة (وهو كما تعلم — مراسل ادباء الشرق العربي والمهجر كافة) — ان البريد اللبناني محجوب عنه ولا يعلم شيئا عن اخبار ادباء لبنان جميعا ؟ ! ...

٤ — اما مجلة (العربي) الكويتية — فقد سمعت ان هناك صراعا على رئاسة تحريرها منذ وفاة عالمنا الدكتور احمد زكي ! ولم اطلع على مقالتك عن (الخيام) والدفاع عنه ، لانني غير متتبع لاعداد هذه المجلة بانتظام .. ولعلي اعثر على العدد الذي فيه مقالتك في مكتبة كليوبترا — واسمها (مكتبة الصبر طيب) !!

والى اللقاء يا اخي الاديب العزيز على صفحات المجلات — او في الرسائل .. او في لقاء شخصي — في اسعد الاوقات — ، دمت للمخلص الوفي ، نقولا يوسف .

وارسلت ردي على خطابه هذا بتاريخ ٧٦/٢/١٤ ولاول مرة لم يصلني رد منه ... وكان آخر خطاب كتبته له بتاريخ ٧٦/٤/١٩ اهنئه فيه بعيد القيامة واستفسر عن صحته ، والمؤلم ان هذا الخطاب ارسل اليه وكان قد فارق دنيانا ، وانا لا ادري — الا بعد ان قرات صحيفتنا (اخبار دمياط) تنعاه الى قرائه ...

لقد تراسلنا قرابة عامين وكانت خطاباتنا ندوة ادبية تناولنا فيها الكثير من الموضوعات الذاتية والموضوعية ... وكانت هناك محاولة مني ان اصل الى اعماق اديبنا الكبير واجعله يتكلم عن نفسه لاعرف عنه اكثر مما عرفته عنه في كتبه .

كان اديبنا الراحل من ارق الادباء اخلاقا واقربهم من الذوق الحساس الرقيق ، وكان في كل ما كتبه ودودا متواضعا هادىء الطبع ... لقد اعجبت كثيرا بألمعية خاطره وحيوية ذهنه حتى وهو يعاني مما انتابه اخيرا من ضعف ووعكات صحية ، ولم يخل هذا دون انتاجه فقد توفي — رحمه الله — والقلم في يده . وكان اديبا اصيلا ينتج في صمت ... عاش لرسالته بعيدا عن الاضواء والضوضاء .

لم يأخذ (نقولا يوسف) حظه من اهتمام النقاد في حياته لانه كان راهب فكر يتعبد في محراب الادب يؤمن برسالته ويضعها فوق كل الاعتبارات ولا ينزل بها دون المستوى من اجل نفع زائل او بريق زائف .. وواجب محبي (نقولا يوسف) ومريديه ان يتناولوا حياته وتراثه بالشرح والتفسير ... فنقولا يوسف يستحق اهتماما كبيرا .. اكبر واعمق مما ناله في حياته .

والآن اسأل : ما مآل مخطوطاته العديدة التي قال لي عنها في احدى رسائله : (امامي عدد من كتبي المطبوعة — واكثر منها لم يزل مخطوطا — ولعل بين المخطوط ما هو احب الي من المنشور لسبب او لآخر) ...

ورسائله الى مئات من الاصدقاء في العالم العربي ؟ ! هل يتركها اصدقاؤه الادباء تأكلها العثة وتندثر ؟ ! فآمل ان تجمع كل رسائل (نقولا يوسف) — التي بعث بها الى اصدقائه العديدين — في كتاب خاص يحيي به هؤلاء ذكراه . وان كان هذا متعذرا ، ارى ان يبعث بها الاصدقاء الى (الاديب) الذي يهمه ان تنشر هذه الثروة الادبية القيمة ولا تطمر وتندثر .

القاهرة — ايليا حليم حنا

ظعون المعري

*

سر يا ظعون ! ..
واقطع رحلة الموت
سيرا ، يخترق برفق ، وتؤدة ،
هداة الليل ، وضوضاء النهار ، واديم الارض .

ســر ! ..
لا تلو الى الوراء ،
فلا شيء يستحق الذكر ،
الحلو على ظهر هذا الحطيم مر ،
والمر علقم ، والفناء يفتك باستمرار ،
جيش دون دبيب ، جرار ، يتسلل ، يزحف ،
خلسة ، دون حفيف ، يكر
صوته ايماءة هاجرة ،
غفوة ظل ، رفة هدب ،
لا يترنم ... لا يترنح ...

ســر ! ..
كل شيء هالك وله ميعاد ، من قبل ثمود ، وعاد
والانسان مغرور عات ، يبصر بغرائزه ،
يتظاهر بالتقوى صبحا ، ويدس السم مساء ،
يتنكر ، يتلون ، يتنسك ، لصيد الضعفاء ،
سر يا ظعون ! ..
غير آسف ، غير نادم ،
عن حياة براقة ، وعالم مراء ، ماكر ،
الفساد فيه باد ، من قديم ، والداء عياء ،
ولا مجال للحيرة ، والتردد .

ســر ! ..
فقد قطعت حبل الوصل ، واسترحت ،
وسددت على الحبة ، باب الجحر ،
وتبعت الركب الهادي ، بقرار حازم ، صارم ،
استخرت الله فيه ،
يمنحني ، العون ، الايمان ، صوم الدهر ،
بعد ان استرجعت ، وحمدت

سر يا ظعون ! ..
فقد تمادى الباطل ، وصال ،
واشتد ساعد الشر ، وعم اذى الحمق ،
وتعاظم نفوذ الفجار ، والتجار ،
ودنس اولاد الافاعي ، الهياكل ،
واستباحوا حق اليتامى والايامى ،
والانسان الانسان ، مخلوق ضعيف ، لا يساوم ،
منكفيء ، ليس له حول في رد الغوائل ،
انه مغلوب ، مقهور ، يتذمر ، يتصبر ،
وهو في الحق لا يفرق ،

سر يا ظعون ! ..
فقد ضلت الدنيا عن ركب الحق ،
وعن عظمة هذا الكون ، الذي يندي بالخير ،
ويسبح ، المجد ! ..
وراحت تتفنن في تعذيب البنين ،
وقتل الآخرين ، امعانا ... تصميما .
اللعنة ! .. اللعنة عليك يا ام الدواهي ،
يا أم دفر ! ..
لقد اخطأت في تقدير جوهر العقل ،
وتغاضيت عن خلود النفس ، وفناء الجسد ،
فحذا ابن آدم حذوك ،
واقدم على اعظم خطب ،
وحطب على ظهره اشأم حطب ،
وشمخ ، وعاث وتاه ، في متاهات السراب ،
واضاع العمر ، غير هياب ، للثواب ، والعقاب .

سر يا ظعون ! ..
واقطع رحلة الموت
لا شيء يسر في عالم موكوس ،
وعلى الدنيا بعدك العفاء ،
وامر الله ظاهر في التقدير ، والتدبير ،
« من يهد الله ، فهو المهتدي ، ومن يضلل ،
فلن يجد له وليا مرشدا » .

محمود الحسنية



اميل توفيق

في فلسفة العلم
السببية والقوانين الطبيعية

بقلم اميل توفيق

* * *

ان فكرة « السببية » قد اصبحت محورا لكل نظرية عن « المعرفة » في عصرنا الحديث . والحقيقة ان الطبيعة تمدنا بالاحداث التي تقع في نطاق حواسنا . ولا نجد لها وصفا يفسرها سوى « قوانين السببية » وهذا يجعلنا نميل الى التاكيد بأن الاحداث الطبيعية انما يحكمها قانون العلة والمعلول .

ومنذ ان قـدم نيوتن قوانينه في الميكانيكا ، وجدت الفلسفة في تلك القوانين مفهوما جبريا ... بمعنى ان هناك اساسا وراء هذا المفهوم ، هـو اساس التفسير الجبري لنظام العالم الفيزيقي .

ويهمنا ان ندرس تطور مفهوم السببية منذ القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين . ذلك لان هذا التطور قد ترتب عليه اعادة النظر في فكرة « القوانين الطبيعية » التي قامت على فلسفة جديدة عن السببية .

فما معنى السببية ؟ الحقيقة ان رجل العلم يفهم قانون السببية على انه علاقة تربط بين حدثين — بحيث ان حدوث اولهما (أ) يعقبه الثاني (ب) مباشرة . وهذا التعاقب الزمني بين أ/و/ب يحدث في كل الاوقات طالما بدأنا بـ (أ) . فاذا قلنا ان النار تحرق الخشب كانت العلاقة بين اشعال النار (او تسليطها على الخشب) ، وحرق الخشب .. هي علاقة سببية ، لانها علاقة تتكرر دائما طالما سلطت النار على الخشب . او تأمل مثلا آخر .. فمرور التيار الكهربي في سلك معدني ، يحدث انحرافا في الابرة المغناطيسية وملاحظتنا ان التيار يحدث الانحراف دائما .. تؤدي بنا الى علاقة سببية بين التيار الكهربي والمجال المغناطيسي الناتج .. وان هذه العلاقة انما هي تشير الى قانون ، وليس الى مجرد علاقة قائمة علـى الصدفة . فأحيانا يحدث ان يعقب حدث ما حدثا آخـر ويرفض العلم او العقل الواعي ان يعتبر هـذه العلاقة الطارئة قانونا سببيا . اما التكرار بين حدوث أ ثم ب في تعاقب زمني فهو الذي يجعلنا نقول ان (أ) هي العلة او السبب .. وان (ب) هي النتيجة او الاثر . ولما كان هذا الارتباط يحدث دائما وصفنا هذه العلاقة بالسببية .

ان التقدم المادي في عصرنا الحاضر مدين للعلـم بتطبيقه للكثير من القوانين الطبيعية التي تم كشفها خلال القرنين الماضيين ، وكل نتيجة من النتائج التطبيقية انما تقوم اساسا على قاعدة عامة او اكثر او على قانون او اكثر من القوانين الطبيعية .

تصاغ قوانين الطبيعة اذن في صيغ معينة او في مقولات معينة . نعتبرها علاقات يشار الى ان حدوثها دائم وبلا استثناء . وهذا التحليل ليس فقـط يوضح معنى السببية ، بل انه يفتح الباب او يمهد الطريق لكي نمد معنى السببية ، لكي نفسر بها او نفهم بلغتها ما ادخله العلم الحديث من جديد النظرات وبخاصة علم الاحصاء .

ان قوانين الاحصاء — وهي اصلا كانت تطبق في مجـال المشاهدة والتسجيل لنتائج تمرينات المصادفة او الصدفة — هذه القوانين اكتشف ان لها اهمية في تطبيقها في مجالات اخرى .

لقد تم عمل اول الاحصاءات الاجتماعية خلال القرن السابع عشر . اما في خلال القرن التاسع عشر فقد ادخل الاحصاء في علم الفيزيقا .

وبتطبيق العلـم الاحصائي في الفيزيقا — كمـا في العمليات الحرارية وغيرها — امكـن العالم النمسوي بولتزمان ان يفسر القوانين التي تتم بها هذه العمليات على اساس احصائي . وما كنا نعبر عنه بالقانون الدقيق انما قد حل محله التعبير بانه قانون احتمالي ، وان احتمال حدوثه هو احتمال عال جدا ، مـع ترك نسبة صغيرة احصائية او احتمالية للاستثناء . اي ان المفهوم اصبح يشير الى ان (أ) يعقبه (ب) والحدوث بينهما بنسبة مئوية كبيرة جدا — مع النسبة الصغيرة جدا للاستثناء .

بهذه النتيجة دخلت السببية الى مرحلة جديدة . ذلك ان فكرة السببية الدقيقة انما تدرك على اساس تصور

عيناك

عيناك ابحر فيهما
مستشعرا جو الامان
واظل اقبس منهما
نورا يبث بي المنى
ويضيء لي درب الزمان
فاروح أكتب عنهما
شعرا يفيض محبة

ويفيض انهار الحنان
فهما اللتان تقدمان لريشتي
سحر القوافي والبيان
وهما هما لولاهما
لولا دخولي فيهما
لبقيت منغلق الجنان !

عمان — الاردن

رياض العزه

مثالي للاحداث المنتظمة (والتي يكون تكرار علاقاتها بأعداد وفيرة) في البيئة ذات الاجسام الكبيرة التي نعيش فيها .

اي ان ما نعتبره قانونا دقيقا انما هو تبسيط لما يشير اليه هذا العدد الوفير من العمليات ذات العلاقات العلية او السببية . ونحن نرى في هذا الانتظام قانونا دقيقا . وما هو في الواقع الا قانون احصائي او قانون من قوانين الاحتمال .

هذا وليس في مقدورنا ان ننقل فكرة السببية الدقيقة (من العالم الكبير الاجسام) الى عالم الذرات او العالم الميكروسكوبي . واذا جاز لنا ان نعتبر ان السببية قاعدة اساسية في مجال عالمنا الانساني ، او المجال ذي الاجسام الكبيرة .. فان السببية لا يمكن ان تكون هـي القاعدة المفسرة للاحداث والظاهرات التي تحدث في العالم الذري او الذرات . انما الحادثان او الوقائع والظاهرات الذرية تفسرها القاعدة البديلة — قاعدة الانتظام الاحصائي . وبعدما اكتشف ماكس بلانك ذرية الطاقة ، بما سماه الكم او الكونتم ، واصبحت الميكانيكا هـي الميكانيكا الكماتية (وتسمى بالميكانيكا الموجية) اصبحت قوانين الاحتمال تحل محل السببية . وقد عبر هيزنبرج بقاعدته الشهيرة اللاجبرية انه في المجال الذري او مجال تطبيق الميكانيكا الموجية لا توجد سببية . فالمبدا الذي تقره الفيزيقا هو مبدا الانتظام الاحصائي او القوانين الاحتمالية . والمنطق الحديث يقدم لنا وسيلة التعامل بهذه العلاقة . ونعني بها العلاقة التي تتضمن الاحتمال .

والتركيب العلي الذي كونا له صورة في عقولنا ، او الذي بنيناه في تصورنا ، على اساس العلة والمعلول او السببية ، هو تركيب لم يعد يفسر لنا الحادثان او الوقائع كما تقع في الكون . لقد اصبح يحل محله تركيب او بناء آخر على اساس مفهوم القوانين الاحتمالية اي بناء احتمالي للعالم الفيزيقي . ان فهم هذا العالم فهما صحيحا ، وتفسير وقائعه واحداثه انما يقتضي ظهور هذه النظرية الاحتمالية .

على اننا يجب ان نلاحظ حتى بدون نتائج الميكانيكا الموجية ، وبدون اخذنا العالم الذري في الاعتبار ، نلاحظ ان تحليلنا للسببية يظهر لنا ان تصوراتنا الاحتمالية ، او افكارنا الاحتمالية ، لا بد ان تؤخذ في الاعتبار ، اذ هي لا غنى عنها لتجعل السببية دقيقة . ان قانون السببية هو في الواقع قانون صحيح ومثالي ، طالمـا كانت الظروف مثالية ، وكان تركيب الموضوعات التي تتضمنها العلاقات الموصوفة هي موضوعات لها تركيب مثالي معروف وواضح تماما . اما اذا كانت الموضوعات معروفة لدينا بدرجة كبيرة من الاحتمال ، فاننا لا نستطيع وصف العلاقات بينها وصفا يقوم على التركيب او البناء السببي الدقيق ، ان الدلالة الاحتمالية انما تشير الى اهميتها التفسيرية حتى قبل ان تكتشف ميكانيكا الكم او الميكانيكا الموجية .

وبعد هذا الكشف التوضيحي ، لم يعد هناك فيلسوف لا يأخذ في اعتباره مفهوم الاحتمالات اذا اراد ان يتفهم « التركيب المعرفي » بل لم يعد هناك من ينظر نظرة علمية (فلسفية او تطبيقية) الا ويقرنها بالفكرة الاحتمالية .

ان ما قدمه العلم من نتائج ومفاهيم قد جعل صرح الفلسفة العقلية (او المثالية) ينهار تماما ، بل قلل من قيمتها .. وفي نفس الوقت قد اعلى من قيمة الفلسفة الواقعية او التجريبية ، ولكن على اسس جديدة تماما ، فقد اصبحت هذه الفلسفة تستمد مقوماتها من الفيزيقا الحديثة او بالاحرى من رياضيات الفيزيقا الحديثة .

القاهرة

اميل توفيق

مرجعا البحث :

(1) The Rise of Scientific Philosophy — by Hans Rheichenbach.

(2) Physics & Philosophy — by James Jeans.

ملاحظات على شاعرية ميخائيل نعيمة بين المبدأ والتطبيق

بقلم ممدوح السكاف الهاشمي

* * *

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولادة ثلاث عبقريات فذة ، كان لها اثر خطير في بعث حركتنا الفكرية واشاعة الحرارة في لغتنا وتلوين شعرنا بالوان لم يعرفها من قبل وتفتيح آفاقنا الشعورية والعاطفية على عالم جديد . هذه العبقريات الفذة تمثلت في شخصيات ميخائيل نعيمة ، وجبران خليل جبران وامين الريحاني . ولقد كتبت دراسات مطولة في اعمال هؤلاء الادباء وتحليل آثارهم وتبيان دورهم في نهضتنا الادبية ورصد مذاهبهم وآرائهم في اللغة والشعر والنقد والحياة . وقد اثار كل منهم حوله ، بما اذاع من افكار وطرائق مستحدثة في الفن ، عاصفة قوية ، تصدى لاخمادها المحافظون التقليديون ممن يسيرون على سنن الآباء والاجداد وممن يقدسون موروثنا العربي تقديسا اشبه بالعبادة ، ولكن العاصفة كانت اقوى من الموت واقدر على المجابهة ، والتحدي فلم تستطع صيحات الغضب ان تخنق اندفاعها بل مكنتها من السير الحثيث ووطنتها على التصميم المنتج .

وسنحاول في هذه المقالة ان ندرس ميخائيل شاعرا ، ومعولنا الاول ديوانه الشعري اليتيم « همس الجفون » وقبل ان نبدأ هذه المحاولة لا بد لنا من استقصاء شخصية ميخائيل نعيمة الثقافية والمناهل التي اثرت في تفكيره ، ومن قراءتنا لترجمة حياته في كتابه « النور والديجور » وكتابه الموسوعة « سبعون » نرى ان الحياة بامتداداتها الواسعة الرحبة وبما فيها من تناغم وتكامل وانسياب هي العامل الاول في تكوين شخصيته الثقافية ومده بالفكر العميق . اما العامل الثاني في تكوين هذه الشخصية فهو اتقانه اللغة الروسية وقراءته لآدابها عندما كان يدرس في اوكرانيا بروسيا ، واتقانه للغة الانكليزية وقراءته لآدابها ايضا حينما كان يدرس الحقوق في جامعة واشنطن بأمريكا . ولا شك في ان اطلاعه على آداب هاتين اللغتين وخاصة الانكليزية قد اضاف الى ذخيرته الثقافية التي استمدها من طبيعة الحياة ، صنيع ابناء الحياة وفنهم في اصقاع الدنيا المتباعدة . اما العامل الثالث في تكوين شخصية نعيمة الثقافية فهو اطلاعه الضئيل في شبابه على كتب الادب القديمة في العربية وما فيها من شعر ونثر وخطب ورسائل ومقامات . ومرد هذا الزهد في التعمق بآدابنا الكلاسيكية ودراستها كون ميخائيل قد ثار على نمطية هذه الاداب شكلها وجوهرها لانه وجد فيها انغلاقا فكريا وروحيا ، ومراوحة واستعادة في الصياغة الفنية وكونه ايضا قد عاش يفاعته وجزءا طويلا من شبابه في غربة متنقلة مما ابعده عن الاطلاع الدائب على ادبنا القديم لعدم توافر مصادره ومظانه ، لذا فالدارس لآثار نعيمة يلحظ ضمور ثقافته في الادب العربي القديم وقلة اتكائه على سالفنا اللغوي .

هذه هي العوامل التي كونت شخصية نعيمة الثقافية ، واذا اضفنا اليها ما للغربة عن ربوع الوطن الام من آثار جليلة وتجارب مخصبة ، وجدنا كم هي غنية هذه الشخصية ومنوعة ، وكم هي ذات ينابيع دافقة وظلال وارفة ، وكم هي مشبعة بالعقل والروح والنماء .

ويقتضينا منهج الدراسة المقارنة ان يكون تخطيط بحثنا كما يلي :

آ) تحليل شاعرية نعيمه ، ب) العرض لشاعريته بين مبداه النقدي وتطبيقه الشعري .

يقف مؤلف (الغربال) من شعرنا وشعرائنا موقفا هجوميا حادا ، فهو يهاجم الشعراء الجاهليين بعنف ويقول ان غثهم اكثر من ثمينهم ، وليس في اشعارهم ما يرفعهم الى مصاف الخالدين ، وهو يهاجم الشعراء المحدثين امثال شوقي وحافظ ومطران ويصفهم بانهم شعراء مناسبات يفتشون المعاجم لتذليل القوافي الشاردة ، ثم ينتقل ليعرف الشعر تعريفا شاعريا اسلوبيا منفلوطيا كأن يقول — انه ترنيمة البلبل ونوح الورق الخ ... ثم يقول في نهاية التعريف — وبعد ان يرفض كل التعريفات السابقة للشعر — « وبالاجمال فالشعر هو الحياة باكية وضاحكة وناطقة وصامتة ومولولة ومهللة ، وشاكية ومسبحة ومقبلة ومدبرة » وما اظن ان في هذا التعريف كبير غناء لانه تعريف للحياة اكثر مما هو تعريف للشعر ، واذا جاز لنا ان نحكم على امر فاننا نعتقد ان ميخائيل نعيمة اراد بهذا التعريف الطويل الحافل بالمتضادات والطباقات ان يقول لنا ان الشعر هو الحياة وبهذا خرج عن جوهر الشعر الى تأثيراته، وانتقل من حقيقة الشعر الى توليداته .

ويعتقد نعيمة ان الشعر ليس صنعة ولا تزيينا ولا زركشة ولا رنينا موسيقيا انما هو معنى الوجود والحياة وعواطف الانسان ضمن الجماعة ، لذا طالب ان ترفع كفة المعنى على كفة اللفظ او كفة الروح على كفة الجسم ، وان يصور الشاعر في شعره الخوالج النفسية من رجاء ويأس وفوز وفشل وايمان وشك ولذة والم وغير ذلك من انفعالات وتأثيرات . وهذا معناه ان نعيمة يجعل للفكرة والعاطفة والخيال المقام الاول في الشعر وللغة المقام الثاني ولعل الذي دفعه الى هذا الاعتقاد ، ضعف لغة ادباء المهجر وضمور العناصر الثلاثة « الفكرة والعاطفة والخيال » في شعر شعراء تلك الحقبة من الزمن في الاقطار العربية .

وقد يكون نعيمة قبس هذا التفكير في الشعر من الآداب الاوروبية والمنزع الرومانسي بشكل خاص . الا انه

يعتقد ان للشاعر دورين ، دورا تجاه نفسه ودورا تجاه مجتمعه ووطنه وامته . اي ان للشاعر عالمين عالمه الداخلي وله يغني ما توحيه « الذات » من انفعالات عاطفية وعالمه الخارجي وله يغني ما توحيه « الجماعة » من انفعالات وطنية وقومية واجتماعية .

لميخائيل نعيمة ديوان شعري واحد هو « همس الجفون » ومعظم قصائده نظمت في المهجر بامريكا بين عامين ١٩١٧ و ١٩٣٠ ، ويبدو ان فلسفته في (وحدة الوجود) قد تكونت اول ما تكونت في قصائد هذه المجموعة الشعرية .

وقد عاش الشاعر قصائد « همس الجفون » في مدن الدخان والنار بين مصانع الفحم والحديد ، ورأى تكالب الناس على الاصفر الرنان ، وخبر قسوة الحياة المادية وجهامتها حين تهمل المقدسات الروحية ، فاثر فيه ذلك كله تأثيرا عكسيا ، دفعه الى تقديس الروح واحتقار المادة وجعله يتعلق بالحياة الصوفية تابسا ملامحها الاولية — هو وجبران — من متصوفي الاسلام كالحلاج ومحي الدين بن عربي وابن سينا .

احب نعيمة الطبيعة حبا خلاقا ، واندمج فيها اندماجا عاشقا لما فيها من جمال وجلال وروعة ، احب الجبال لان في ارتفاعها ارتفاعا للانسان ، وسموا للروح ومعرفة لله ، واحب البحر لانه يعطي المخلوق صورة واسعة عن المطلق واللانهاية والخيال الفسيح ، واحب الارض لانها تهب الكائنات الحية بيد كريمة طاهرة من كل اثم ، واحب الانهار في جمودها وانسيابها ، في مماتها وحياتها وغنى جماع هذه المظاهر الطبيعية في نثره وشعره ، وهكذا فان نعيمة يتامل الكون الطبيعي فيجد في مشاهده الملونة المختلفة دروسا من الفلسفة والتعقل تدعو الى التفكير الدقيق وادامة النظر في اسرار الحياة . وهو يشترك في هذه الميزة — حب الطبيعة واللجوء الى جمالها لتخفيف الالام وقهر الصعوبات مع بقية شعراء الرابطة القلمية ، ونظرة واحدة على عناوين قصائده في الديوان من مثل «النهر المتجمد» «اوراق الخريف» « ترنيمة الرياح » « نهر يغني » « يا بحر » تثبت ذلك .

واحب نعيمة الخير وكره الشر ونادى بكره الشر لا بكره الشرير وراى ان الانسان يختزن في اعماقه صورة للملاك وصورة للشيطان وان الصراع بين هاتين الصورتين ابدي سرمدي لانه يعبر عن الصراع بين قوى متناقضة متعادية في الحياة :

دخل الشيطان قلبي ، فراى فيه ملاك
ويلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك
ذا يقول — البيت بيتي ، فيعيد القول ذاك
وانا اشهد ما يجري ولا ابدي حراك
سائلا ربي — اي الاكوان من رب سواك
جبلت قلبي من البدء يداه ويداك
لست ادري ارجيم في فؤادي ام ملاك

واعتقاد نعيمه بوحدة الوجود وبأن الذات الالهية والكون والمخلوق جميعها تؤلف كلا جميلا هو الله ، وعنه يصدر كل شيء ، واليه يعود كل شيء دفعه لعدم الخوف من الموت واستقباله بفرح لان الروح ، روح الانسان جزء من روح الله ، ولان هذه الروح الميتة سترجع لتجد في جسدها داخل الحفرة الرطبة نور الحياة مجددا .

وعندما الموت يدنو | واللحد يفغر فاه
اغمض جفونك تبصر | في اللحد مهد الحياه

ويظهر هذا الاعتقاد بوحدة الوجود واضحا في قصيدته « من انت يا نفسي » فنراه يتساءل في مقاطعها تساؤل الفيلسوف الشاعر او الشاعر الفيلسوف عن مصدر النفس الانسانية ومبعثها ، هل انت من البحر ومع امواجه ، ام انحدرت مع الرعد في قصفه او ولدت مع الريح في صوائها او انبثقت من الفجر وضيائه الازرق ، او هبطت مع الشمس واشعتها الذهبية او غردت مع اللحن في انسجامه ؟ ... ثم بعد حيرة وشك ، وكثير من الاستفهامات يقول :

انت ريح ونسيم انت موج ، انت بحر
انت برق انت رعد انت ليل انت فجر
انت فيض من اله ...

ويرى نعيمة ان اكبر قوة واعظمها في الانسان قوة الخيال لا قوة العقل فالعقل قاصر عن ادراك الذات الالهية لانه مقيد بالحواس اما الخيال فقادر على الانطلاق والرفرفة في الابعاد والآماد اللانهائية لانه ليس مغلولا بغل . وهكذا فالخيال والعقل دفعا نعيمة الى التامل المجرد في حقائق الوجود ، وكنه العالم ، وفي النفس الانسانية وفي اسرار الحياة فكان ان اعتقد بعد تأمله الرحب العميق الشامل ان الالم هو الذي يوحد القلوب ويصقل احاسيسها ويقيم بينها الروابط المتينة واسباب التعاطف والمحبة ، وان كمال الانسان لا يكون الا بالسلام وان رخاء العالم لا يتحقق الا بالصفح وان الحرب هدر لكل القوى البشرية وان الاخوة الانسانية يجب ان تعلو المكاسب المادية .

اخي ان عاد بعد الحرب جندي لاوطانه
والقى جسمه المنهوك في احضان خلانه
فلا تطلب اذا ما عدت للاوطان خلانا
لان الجوع لم يترك لنا صحبا نناجيهم
سوى اشباح موتانا

هذه لمحة عابرة تطرقنا فيها الى نتف من طريقة تفكير نعيمة وطبيعة عواطفه في ديوانه « همس الجفون » ، ولنا ملاحظات تتعلق بروح الشعر ومادته لديه واولها ان القصيدة عند نعيمة تعبير نفسي متكامل ، او عمل ذاتي تام ، تتجلى فيها الوحدة الفنية ، وتعالج في مجموعها موضوعا واحدا فالشاعر « يسترسل » مع فكرته استرسالا ينسيه احيانا انه يكتب قصيدة ، ويبني كثيرا من قصائده على هذا الاسترسال بل لعله يعمد الى الموضوعات التي تبيح له مثل هذا الانطلاق المسترسل الذي لا يقف بصاحبه الا حين يتعب او يمل ، لا حين يجد الشبع الحقيقي وهو

يصوغ تجربته النفسية في ابيات متعاقبة يجمعها الانحام والاتساق ، ولعله استمد هذا كله من نموذج القصيدة الغنائية عند الغربيين ، اذ تصل بين الابيات فيها وحدة عضوية متآزرة ولا عجب في ذلك فقد غنى نعيمة كما غنى الرومانسيون آلام النفس البشرية وطفح وجدانه بأحاسيسها ومشاعرها .

والملاحظة الثانية هي فقدان نزعة الحنين الى الوطن ومناجاته والشوق اليه في هذه المجموعة مع ان هذه النزعة تكاد تكون السمة الاشد وضوحا في شعر الشعراء المهجريين الجنوبيين والشماليين ، وهي حادة عنيفة عند الياس فرحات والشاعر القروي وايليا ابي ماضي وجورج صيدح ونسيب عريضة وغيرهم ... فهل نستطيع ان نقول ان تيار الحياة الجديد الاخاذ في امريكا قد حجب عن الشاعر وجه وطنه الام ، وانساه ملاعب طفولته وذكريات صباه ؟ .. قد يصح لنا ان نزعم مثل هذا الزعم اذا علمنا ان نعيمة يكفر بالحدود والاقاليم والاوطان والاعلام والنقود المضروبة — مطبقا عقيدته في وحدة الوجود تطبيقا فضفاضا — لانه يرى ان « الوطن ليس اكثر من عادة » ويسخر من الذين « يذرفون الدمع لفراق اوطانهم ويذوبون حنينا اليها » على حين يحاول الدكتوران احسان عباس ومحمد يوسف نجم في كتابهما « الشعر العربي في المهجر — امريكا الشمالية » ان يلصقا بنعيمة نزعة الحنين الصاقا بمعناها الوطني الواسع الذي تعارف عليه النقاد ، وذلك في قصيدته « صدى الاجراس » فيقولان — « وقد مزج نعيمة بين الحنين الى الوطن والحنين الى الطفولة على طريقة الاسترجاع الحلمي والتوغل في الماضي . كمشي النائم اثناء النوم .. » وهذا فيما نظن نوع من التعمل والتصنع في تفسير القصيدة وتحليلها سيكولوجيا ، وحشر للدراسات النفسية في غير موضعه ويقصد بهذا الالصاق الاعتذار عن الشاعر لضمور معاني الحنين في شعره او بالاحرى انعدامها ، ويقينا ان من يقرأ قصيدة « صدى الاجراس » لنعيمة لا يقع فيها الا على بيت واحد يختلج فيه الحنين الى الوطن او الى الطفولة هو قوله :

ذا صوت صباي يردده — الوادي وشواهق صنيني

وتعلق نادرة جميل السراج على فقدان هذه النزعة في شعر نعيمة بقولها : « وهكذا جاء شعره خاليا من صور الحنين او مواقف التأثر بطبيعة بلاده التي ظهرت صورها ومناظرها في اشعار زملائه من شعراء الرابطة » وتعلل ذلك قائلة : « ان ميخائيل نعيمة لم يأت الى امريكا مهاجرا من بلدته في سبيل القوت والرزق كغيره من المهاجرين ولا فارا من مظاهر الظلم والتعسف كغيره من المسيحيين وانما هو قد سافر طلبا للعلم في الجامعات الامريكية وتزود منه بقسط وافر في السنين الاربع الاولى من قدومه الى العالم الجديد وكان طبيعيا ان يشغل فسحة هذه المدة بالعلم عن تذكر الاهل والديار ، وان ينصرف الى الدراسة التي ابعدته عن الصبابة والتذكار » .

والملاحظة الثالثة ان نزعة التشاؤم تغلب على معظم قصائد المجموعة وان اللون الكامد فيها اظهر من اللون المشرق والانطواء على العواطف السلبية اكثر من الانفتاح على العواطف الايجابية ، ونظرة واحدة على فهرست القصائد في « همس الجفون » يؤكد صحة هذا الراي وقد يظن ان فلسفته الصوفية دفعته الى هذه النزعة التشاؤمية القاسية ، وقد تكون مطالعات نعيمة للشعر الانجليزي واعجابه بالمدرسة الرومانسية لهما اثرهما في دفعه للسير على هذه الطريقة وتلوين شعره بالنغمة الاسبانية الحزينة كما في قصيدته « التائه » التي يبدأها بهذا المطلع :

اسير في طريقي	في مهمة سحيق
ووحدتي رفيقي	ووجهتي الفضا
مطيتي التراب	وخوذتي السحاب
ودرعي السراب	ورائدي القضا

ومن الغريب ايضا — وهي الملاحظة الرابعة — ان نرى ضمور وهزال عواطف الحب نحو المراة في « همس الجفون » فنحن لا نعثر على قصيدة واحدة فيها لوعة المحب وسهر العاشق ، ودنف الصب مع أن ميخائيل نعيمة يعتقد ان الرجل والمراة جناحا البشرية ، وان المراة قلب الانسانية النابض في قلب الله فهل كان تصوفه الفلسفي معوضا له عن حب المراة واستلهامها ؟ ...

لا شك ان حياة نعيمه في شبابه لم تخل من امراة بل من عدة نساء وهو الذي قضى شطرا كبيرا من عمره موزعا ما بين روسيا القيصرية وامريكا فهل يعقل ان يعيش في مثل هذه المجتمعات المتقدمة والمتحللة خلقيا في آن واحد دون أن يعرف امراة ويعاشرها ، ان لم نقل يحبها ؟ .. ان هذا الظن ليكاد يكون ضربا من المستحيل واذ كانت فلسفة النعيمي الاجتماعية والانسانية تدعو الى « المحبة » كي تتحقق سعادة البشرية ، واذا كان قد صرف جهده كتابة وخطبا في الدعوة الى الحب « الكبير » فلماذا لم يعبر في شعره الا في القلة النادرة عن حبه الفردي « الصغير » ؟ .. هل يمكن ان يكون هذا البعد عن وصف عواطف القلب ، نوعا من الرصانة الادبية والفكرية والاجتماعية اراد بها نعيمة ان يميز نفسه عن بقية اخوانه في الرابطة القلمية الذين صوروا حبهم وعذاباتهم النفسية تصويرا رائعا ، وحفلت دواوينهم بأناشيد الفؤاد الولهان والعاطفة الجياشة ؟ ... وهل يتعارض الحب مع التصوف ؟ ... ام هل يتنافى الحب مع وحدة الوجود ؟ ... قطعا .. لا .. واكاد اقول ان نعيمة بالتعبير الحديث (نرجسي) كعمر بن ابي ربيعة مع حفظ الفارق بين الشاعرين عصرا ومنزلة شعرية ومسارا فنيا ، فالنساء يتهافتن عليه وهو يترفع عنهن ، وفي جميع علاقاته الانثوية يصور نفسه انه هو المحبوب وليس المحب وهذا هو عشق الذات . ففي حديثه عن حب (ماريا) له في بولتافا بروسيا يقول في المرحلة الاولى من سبعون « يا الله اي ورطة هي هذه الورطة . ماذا اعمل بقلب لا يرى له حياة الا في قلبي ؟ .. بل ماذا

اصنع بقلبي ترتمي عليه القلوب وهو لم يجد بعد قلبا يرتمي عليه » وفي مكان آخر من « سبعون » يصف نزوع « غاريا » الشهواني نحوه فيتول واذا بفاريا تنهض عن كرسيها وبلمح الطرف تطوقني بذراعها وتنكب على فمي بشفتيها مرددة عن كل قبلة خذها .. خذها .. تذكارا من غاريا » .

وفي قصيدة « آفاق القلب » محاولة للتغلب على الحب ودفعه عنه ، وهي مثال فذ على خمود العواطف القلبية عند نعيمة ، وتوقد الافكار في عقله ، ثم الصراع المر بين النقيضين «العاطفة» التي يمثلها القلب و «الفكرة» التي يمثلها العقل ، وها هوذا يخاطب قلبه قائلا :

فكم من مرة هجما عليك الحب فانهزما
وكم ، كم قد جئنا قلب امامك حاملا املا
فراح مزودا المـا
نقلت لفكرتي انقـدي وقلت لنفسي اتشـدي
فنور الفكر يهدينا اذا مـا قلبنا مجدا
ونورا فيه لـم نجد

وترى « ثريا ملحس » في دراستها عن تصوف ميخائيل نعيمة ان الحب هو الخيط الاليف الذي لا بداية له ولا نهاية في حياته ، وانه هو الذي دفعه الى ايمانه بالانسان وبالله والى احساسه بالاشراق والفيض ، وتعتقد ان نعيمة « احب نفسه اولا ، ثم انطلق بعد الى الانسان ثم الى الله ، فالخليقة فالوجود » ولانه — كما تقول ثريا ملحس — لم يجد امرأة تشاركه الفهم الالهي ، ولم تستطع الوصول معه الى محجته « راح يستعيض عنها تارة بالدعوة الخيرة الى المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الادراك والناسوتية ، وتارة اخـرى بالنظر الـى ان الزواج فشل انساني » وتسترسل الادبية ملحس في اسبـاغ صفات الصوفية وشطحاتها على نعيمة حتى يصل الحب عنده الى المحبة والمحبة الى الحب ، ويذوبا معا . وتنتهي في خاتمة بحثها لهذه النقطة من تصوف نعيمة الى ان « الحب هو المصعد الروحي الذي قربه الى الله ، وكسائر الصوفيين ابتـدا بالدين والايمان به ثم بالحب الانساني والتغني به ، ثم انطلق منهما نحو الجمال الاسنى منشدا حبه له » .

وثمة ملاحظة خامسة وهي ان اسلوب نعيمة الشعري يقرب كثيرا من اسلوبه النثري فلغته نقية صافية مترعة بالتعابير الانيقة والصور البارعة المنتقاة والوقع الموسيقي الاخاذ ، وليس في شعره ما يأسرنا من جزالة اللفظ ومتانته لان نعيمة يوجه همه في قصائده للفكرة والجانب العقلي التأملي الباطني توجيها بالغا ، حتى يستنفذ جزئياتها ويغور الى دقائقها فهو يهتم بالمضمون اكثر من اهتمامه بالشكل فالفكرة عنده هي الغاية الاساسية ، اما اللفظة فهي وسيلة لا اكثر لنقل هذه الغاية ، ومن هنا نلحظ غزارة الافكار والمعاني وتزاحمها وتنوعهـا واسترسالها في قصائد المجموعة ، وخير مثال على شعر الفكرة « المهموس » المتمادي عند نعيمة قصيدته « حبل التمني » وفيها يقول :

فصغيرا قد كنت اطلب لو كنت كبيرا ، ولـي صفات الكبير
وكبيرا لـو عدت طفلا صغيرا واستردت نفسي نعيـم الصغير
وخليا لـو كنت بالحب ، مضنى واسير الغرام لـو كنت حرا
وفصيحا لـو كنت عيا ، سكوتا وسكوتا لـو كنت انطق درا
ووحيدا لـو كان حولي اناس ومحاطا بالناس لـو كنت وحدي
وغريبا او كنت ما بين اهلي وقريبا لـو طال او دام بعدي

ولا بد ان نلحظ ايضـا ان وظيفة الخيال عند نعيمة وظيفة هادفة فهو يأتي بالصور ، ويعمل المخيلة من اجل ايضاح الفكرة التي يريد ايصالها للقارىء فالخيال في اعتقاده ليس ترفا فنيا بل هو اداة تلبس الافكار وتلبسها الافكار وان كنا نرى مع الدكتورين عباس ونجم ان خيال نعيمة خيال قياسي منطقي « يكفيه ان يعلق بحالة ما حتى يقيس عليها الحالات الاخرى » . ونحن نظن ان هذه القياسية الخيالية — ان صح التعبير — هي من مخلفات التفكير النثري عند نعيمة ، فصاحب الغربال ، والنور والديجور ، وجبران خليل جبران ، وزاد المعاد ، الخ ... الخ ... كان ناثرا قبل ان يكون شاعرا ، وكان فيلسوفا متصوفا ، قبل ان يكون حالما مرفرفا ، وكان واقعيا عمليا ، قبل ان يكون مثاليا خياليا ، فلا بد — والحالة هذه — ان تترسب في شعره معظم طرائق التفكير المثالي ومحاكماتها .

يا نهر ذا قلبي اراه ، كما اراك مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك وهو لا

وجدير بنـا ان ننتبه الى كثرة الضرورات الشعرية في المجموعة ومثلها الصياغة والالفاظ غير الشعرية ، والامثلة على ذلك متوافرة تدركها الاذن الحساسة ويكشفها الذوق المدرب ، فما من قصيدة في « همس الجفون » الا وتحوي على قصر للممدود او مد للمقصور ، او زحاف عروضي مستهجن او لفظة نثرية جدا . الا ان هذا العيب ينسحب على الشعر المهجري بأجمعه ، وهو وليد الثقافة العربية المحدودة لدى شعراء المهجر الذين كانوا يكتبون بالايامن ، ويرتزقون بالشمائل ، ولا تدور العربية على لسانهم الا قليلا ، والغربة عن وطنهم الام تكاد تنسيهم لغتهم الاصلية .

ونعيمة بدا حياته الادبية ناقدا يدبج المقالات النقدية لمناسبات صدور كتب زملائه في المهجر والوطن او بدافع نقدي ذاتي لمناقشة وتحليل قضية ادبية من القضايا التي يشجر فيها عادة الخلاف بين النقاد كالمفاضلة بين المعنى والمبنى وادب المناسبات الاجتماعية او شعر السياسة والوطنية والوصف ، الى ما هنالك من مشكلات تستدعي التصادم في وجهات النظر ... نقول ان نعيمة بدا ناقدا ثم انقلب الى شاعر والشعر الذي يأتي بعد نضال نقدي شاق ، وشبه نظرية متبلورة الخطوط او على اقل تقدير ، اتجاه محدد في الفهم والتذوق ، محك ناعم وحساس لما يؤمن به صاحبه من آراء ومواقف واعتقادات نقدية ، وكثيرا ما عرفنا الشاعر يصبح ناقدا بعد ان يشعر بالعجز عن تحقيق المثل الاعلى الذي تستشرف اليه نفسه في الشعر والقيم الجمالية التي يبغي توافرها في القصيدة .

اما ان يبدأ المرء ناقدا ثائرا يهدم سوءات القديم ليقيم مكانها حسنات الجديد ، ثم بعدئذ يندفع الى قول الشعر فامر فيه جرأة حقا وهو اذا دل على شيء فانما يدل على ثقة مفرطة بالذات ، ومخالفة للعادة والطبيعة في مجال الخلق الفني .

اترى نعيمة كان على وعي بأنه يرسم بشعره انموذجا لما يطلبه ويلح عليه في نقده ؟ ... اتراه يؤمن بأن جمهرة القراء سترى في شعره وفاء بالمنهج الذي رسمه وانسجاما وتطابقا مع المبادىء والقيم والشروط النقدية التي نادى بهـــا ؟ ...

ولكن ما هو هذا المنهج النقدي في ميدان الشعر لدى نعيمة ؟ ... وهل استطاع شاعرنا الناسك ان يخضع شعره لآرائه الشعرية وهل التزم في قصائده النصائح التي وجهها الى الشعراء في لهجة تشبه الصراخ الناقم ؟ ...

ونحن سنحاول ان نوجز اهم هذا المنهج مخضعين ما بين ايدينا من اشعار نعيمة لميزانه النقدي نفسه ، ولطريقته في الغربلة والتصفية .

اولا — يهاجم نعيمة هجوما ساخرا شعراء الوطن وزملاءه من شعراء المهجر لانهم يصطنعون شعرهم للتكريم والتهنئة والتأبين والوطنية وغير ذلك مما تفترضه المناسبة ويدعو اليه الواجب الاخلاقي ، او العرف الاجتماعي او التزلف النفعي ويضرب كثيرا من الامثلة على ذلك ويهزأ بتائليها . وقد كان نعيمة وفيا لهذا المبدأ في ديوانه « همس الجفون » فانت لا تقع فيه على قصيدة تحفل بمناسبة او تهتم بحدث عائلي او تعير التفاتا الى مجاملات الصداقة والزمالـــة .

ثانيا — ويرى نعيمة انه ينبغي الا يكون الشاعر « عبد زمانه ورهين ارادة قومه » ولكن ينبغي في الوقت ذاته الا يطبق عينيه ويصم اذنيه عن حاجات الحياة وينظم ما توحيه اليه نفسه فقط سواء كان لخير العالم او لويله ونحن اذا استعرضنا قصائد ديوانه ، نجد صدى عميقا لهذه الدعوى الذاتية الخالصة التي ينادي بها نعيمة معبرا عن احاسيسه الوجدانية وعن عالمه الخاص وعن — اكاد اقول — برجه العاجي لولا قصيدته الرائعة « اخي » التي يصور فيها مآسي الحروب واشباح الموت ؛ داعيا الى انسانية سعيدة يرفرف عليها سلام مطمئن وسعادة روحية وتمحي فيما بينها الفوارق العرقية واللونية والطبقية .

اخي ان عاد يحرث ارضه الفلاح او يزرع
ويبني بعد طول الهجر كوخا هده المدفع
فقد جفت سواقينا وهد الذل مأوانا
ولم يترك لنا الاعداء غرسا في اراضينا
سوى اجياف موتانا .....

ثالثا — وحماسة نعيمة توقعه احيانا في شيء من التناقض الفكري وتباين المواقف ، او فلنقل المرونة النقدية . فهو مثلا — يقول في (الغربال) « الوزن ضروري اما القافية فليست من ضروريات الشعر لا سيما اذا كانت كالقافية العربية بروي واحد يلزمها في كل القصيدة ... ولا مناص لنا من الاعتراف بأنها ليست سوى قيد من حديد نربط به قرائح شعرائنا وقد حان تحطيمه من زمان » بينما نراه بعد قليل يقرر : « فلا الاوزان ولا القوافي من ضرورة الشعر ... » وان دل هذا التناقض على شيء فانه يدل على برم نعيمة بهذه الاغلال التي تغل القصيدة العربية ومع كل ذلك وعلى الرغم من هذه الثورة العاتية على الوزن والقافية نرى نعيمة في شعره لم يتحلل منهما ، وان كان قد اختار في الغالب مجزوءات البحور او البحور الخفيفة اللينة ، ونوع القوافي المزدوجة حتى تحول الشعر عند نعيمة الى نغمة يستطيع الانسان ان يترنم بها في صوت خافت ويجد لها طعما ووقعا ومذاقا خاصا مما قرب اسلوبه الشعري من حافة الاسلوب النثري باعتماده علـــى ازدواجية الجمل القصيرة والفترات المتوازنة وامثلة ذلك :

— روحي وخلينا — بالارض لاهينا — نرعى امانينا — في مرج اوهام
— يا رمز فكرحائر — ورسم روح ثائر — يا ذكر مجدغابر — قد عانك الشجر
— اسير في طريقي — في مهمه سحيق — ووحدتي رفيقي — ووجهتي الفضا
— انا الجلاد والاسي — انا الفرار والهادي — انا البلوى — انا السلوى

وضيق نعيمة بالوزن دفع به ، كما قلنا سابقا ، الى ارتكاب الضرورات الشعرية المستقبحة ، ونحن نرى صدى هذه الثورة على البحور الخليلية والقافية العربية في « همس الجفون » والتزاما بمبدأ نعيمة في النقمة عليهما ، ولولا ان نعيمة كان يحب ان يطلق عليه اسم « شاعر » لنظم شعره حرا من قيود الوزن متحللا من اعباء القافية تنفيذا لتشهيره بهما ، وقد يحق لنا ان نرى في شعره وفاء بمنهجه تجاه هذين العنصرين من عناصر الشعر .

رابعا — وقد طالب نعيمة الشاعر ان يتجنب الخلخلة في ابيات القصيدة والا ينتقل انتقالا فجائيا غريبا من نقد عنيف الى حكمة الى غير ذلك ، وان يبتعد عن التناقض في المعاني كما دعا الى ان تكون للقصيدة وحدة عضوية فلا ينفلت الشاعر من نائح يبكي الى ناقد يسخر الى مغرم يتغزل الى مادح ، الى شيخ الـــى اقتصادي الى عالم اجتماعي الى فيلسوف الى لاهوتي ... الخ ...

والواقع انه ليس بين شعراء الرابطة القلمية من هو ادق تمثلا للمخطط الكلي العام لقصيدته من نعيمة ، حتى ليخيل اليك انه على وعي كامل ، وفهم مسبق ببدايتها ووسطها وخاتمتها ووحدتها المعنوية وانسجامها الفكري ، وتسلسلها المنطقي وانسراحها الطبيعي فكأنه بذلك يرسمها امام ناظريه قبل ان يخط فيها حرفا واحدا ، وقد يكون ابو ماضي — كما يرى صاحبا كتاب « الشعر العربي في المهجر — امريكا الشمالية » ادق احساسا منه بنمو القصيدة غير انه لا يدانيه في تصور الحدود الكلية التي تتدرج فيها قصيدته . واذا كان نعيمة لا يملك حدة الانفعال كأبي ماضي ، فان لديه الدقة الكلاسيكية التي تؤدي بصاحبها الى التركيز الشديد وتفصيل التعبير على جسم المعنى دون زيادة او نقص ، وهذا لا يتعارض مع ما قلناه سابقا عن استرسالـه

مع فكرته غانما هو استرسال في داخل هذه الحدود ، فموضوع قصيدته النفسي الفلسفي التأملي هو الذي يملي عليه هذا الاسترسال لا اغفاله لحدود القصيدة او تهاونه في التركيز .

خامسا — وقد نبه نعيمة الشاعر الى ضرورة الابتعاد عن التقرير واللجوء الى الوصفة ليحدث التاثير في القراء فانه لو بقيت شهر — نقلا عن نعيمة — بل عاما اقول للناس : « يا ناس اني بكيت » لما بكي معي احد ولما رق لحالي مخلوق ، غير اني لو ادخلتهم قلبي وقد خيم الحزن فيه وفتحت امامهم ابواب نفسي وقد غلقت في شراك الناس لتبللت مع عيني عيون ، وهذه هي مهمة الشاعر .

وقد استطاع نعيمة حقا ، ان يكون في شعره شاعر العواطف المصورة الموصوفة بشفافية وانسياب ، ففي جميع قصائده تلمح تصويرا لحالات النفس كما تنبعث من الداخل : تصوير للنفس الانسانية في تلقها وسخطها وبرمها، وتفاؤلها وانبساطها وايمانها ، ووصف للطبيعة في عبوسها وجهامتها وفي فرحها وانطلاقاتها ، ورسم للعوامل النفسية في ذوات البشر ، بعقدها واوهامها ، وبصنفائها ورقتها ، انه يستوحي الحياة ، ويعطيها حياة جديدة على الورق دون تقرير وفي قصيدته (اوراق الخريف) نجد مثالا واضحا على شيء مما ذكرنا :

تناثري ... تناثري يا بهجة النظر
يا مرقص الشمس ويا ارجوحة القمر
يا ارغن الليل ويا قيثارة السمر
يا رمز فكر حائر ورسم روح ثائر
يا ذكر مجد غابر قد عافك الشجر
تناثري ... تناثري

سادسا — ولم يغفل نعيمة في منهجه النقدي اسلوب الشعر او ما دعاه بالسروال الخارجي : دقة تراكيبه وحلاوة رنينه وطلاوة الوانه ، وما اشبه . والحق ان نعيمة من اصفى شعراء المهجر ديباجة ورقة لفظية وسبكا شعريا فهو من اولئك الشعراء الذين يعرفون كيف ينزلون الكلمة في منازلها وينشئون التركيب في استوائه ، لا هلهلة ولا تقعر ، وانما انسياب اشبه بانسياب الجدول الرقراق الصافي ، فوق الحصى البراق ، وتمثل غني خصب لموسيقى الشعر في حركتها الداخلية وفي جريانها الخارجي وقدرة ملموسة على التلوين العاطفي يأسا وقنوطا ، وحبورا وغبطة ، وفي قصيدته (ابتهالات) لمع من هذه كله :

كحل اللهم عيني
بشعاع من ضياك
كي تراك
في جميع الخلق : في دود القبور
في نور الجو ، في موج البحار
في صهاريج البزاري ، في الزهور
في الكلا ، في التبر ، في رمل القفار
في قروح البرص ، في وجه السليم
في يد القاتل ، في نجع القتيل
في سرير العرس ، في نعش العظيم
في يد المحسن في كف البخيل

الا ان هذا جميعه لا يمنع ان نعيمة كان ، احيانا ، يهوي الى حضيض النثرية السافرة والالفاظ والتراكيب اللاشعرية متأثرا بطبيعته الأدبية كناثر اولا ، وكفيلسوف صوفي ثانيا ، مثال ذلك قوله من قصيدة « النهر المتجمد » وهي القصيدة التي نظمها بداءة بالروسية ، ثم صاغها مجددا شعرا عربيا :

لكن سينصرف الشتا وتعود ايام الربيع
فتفك جسمك من عقال مكنته يد الصقيع
يا نهر ... ذا قلبي اراه كما اراك ، مكبلا
والفرق انك سوف تنشط من عقالك وهو لا

ومن قصيدة الى : M.B.D.

انا الدمع الذي لما بعينك عندما انقشعا
لاول مرة ، عنها ضباب الغيب والوسن

سابعا — يرى نعيمه ان العصرية في الشعر ليست في ان يملأ الشاعر ديوانه بالصور والرسوم وانما العصرية ان تستفيق نفوس الشعراء على رعشة الحياة في داخلها « لقد كان واحدهم سابقا يكتفي بنشر ديوانه مبوبا تبويبا محكما ، او مرتبا حسب احرف الهجاء ، اما اليوم فتأخذ الديوان وتجد فيه عدا القصائد الشائقة « العصرية » رسوما لا تترك عندك من شك في عبقرية الناظم » .

والعجيب ان يهاجم نعيمة الشعراء الذين يزينون ويحلون دواوينهم بالصور والرسوم ويعمد هو — زيادة في اظهار مواهبه — الى ملء ديوانه « همس الجفون » بالواح ابدعتها ريشته وريشة زميله جبران خليل جبران (الطبعة الاولى للديوان ١٩٤٣ م نشر مكتبة صادر ببيروت والرسوم منشورة مقابل الصفحات ٨ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٥٢ ، ٩٢ . اما الخطوط فبريشة الشيخ نسيب مكارم ، وقد اعتمدت هذه الطبعة في دراستي) انه الانسان .. ولا بد للافكار المفرقة في المثالية من ضريبة ، وكثيرا ما تكون الضريبة تناقض الشاعر مع نفسه احيانا .

وبعد ... فقد كان تصور نعيمة للشعر احيانا ، تصورا ذاتيا ، خاصا به ، يدور في عالم نعيمي وان كانت اشتات من هذا التصور ، تلتقي مع اشتات من تصور العقاد الا ان نعيمة استطاع الى حد كبير ان يعطينا في شعره ما طالب به في نقده ، وهذا ما لم يستطع العقاد الوصول اليه والحقيقة التي لا سبيل الى انكارها أيضا ، ان نعيمة شاعر لم يبتذل ملكته الشعرية مرة واحدة ولم يتملق شعوره ابدا ، بل كان دائما مستلهما ، لما يؤمن به ، وفي هذا وحده ما يجعلنا نشعر بالاسف على انه انصرف عن حقل الشعر الى حقل النثر ولعله وجد المجال هنا اكثر اتساعا لنزعته الاستغراقية التأملية الشمولية التي لا يحتملها الشعر بما طبع عليه من تركيز ولمع وايحاء .

حمص — ممدوح السكاف الهاشمي



جميل بركات

محمد اقبال الشاعر الفيلسوف

بقلم جميل بركات

* * *

تحتفل باكستان بالعيد المئوي لميلاد شاعرها الموهوب اقبال الذي كان يؤمن بأن الحرية هي اثمن شيء في الوجود ونعيم الحياة وسر البقاء ، متخذا من قول الخليفة عمر بن الخطاب المأثور : «كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا» نبراسا ومعنى للحرية التي كان يدين لها ويلتزم بمبادئها ، لهذا كان متعاطفا مع البشر دون تمييز يؤيد ذلك قوله :

لم الق في هذا الوجود سعادة كمودة الانسان للانسان
لما سكرت بخمرها القدسي لم احتج الى تلك التي في الحان

قرأ القرآن وتفهمه وهو فتى صغير يوم قال له والده :

« يا بني اقرأ القرآن كأنه نزل عليك ، فتسود كما ساد قادة العرب الاوائل ، فمبادؤه من توحيد واخاء ومساواة هي اسمى المبادىء التي تتوخاها البشرية ، فعن طريقها تصان كرامة الانسان وتحفظ حقوقه » .

وهكذا كان ، ففهم اقبال الاسلام على حقيقته ، واخذ على عاتقه ايقاظ همم الناس ، وتعريفهم بأن من عرف نفسه فقد عرف ربه ، مؤكدا ان صلاح الفرد هو صلاح المجتمع . لهذا يعتبر نموذجا فريدا في شخصيته ، فاحتل مركزا مرموقا في الادب العالمي المعاصر بعد ان ترجم الكثير مما كتبه في الشؤون الاجتماعية والادبية والفلسفية شعرا ونثرا الى اللغات الحية من انكليزية وفرنسية وروسية والمانية وايطالية وتركية وعربية .

كان مربيا فاضلا ووطنيا صادقا ، وداعية اصلاح وخير ، وهو من الرجال الافذاذ المشهود لهم بالرأي الثاقب وبعد النظر ، عمل على التخطيط لدولة باكستان بعد ان ايقن ان الاستعمار البريطاني في الهند قد زرع بذور الحقد في نفوس سكانها وثبت جذوره ، فسالت الدماء في ثورات اهلية طاحنة لا يكاد يخبو اوارها حتى تستعر من جديد . . .

فاعلن اقبال بملء فيه بان خير وسيلة لوضع حد لهذه المآسي التي تقع في اكبر منطقة على وجه الارض مساحة وسكانا ، هي تقسيمها على اسس جنسية ودينية ولغوية ليستطيع الناس هناك العيش بسلام في مجتمعات وبيئات تلائم عاداتهم ومعتقداتهم .

ويوم ذاك وصفت اراؤه هذه بانها خيال شاعر مجنون ، والشعراء يتبعهم الغاوون . . . الخ .

فالاستعمار كما خيل لسواد السكان هناك لا يمكن ان يقيم دولا مستقلة في شبه القارة الهندية ، ويغادر من حيث اتى بعد ان ذاق حلاوة خيراتها واستغل مواردها التي لا تنضب ، وسخر اهلها كعبيد اذلاء لخدمته ، وفي حروبه وغزواته كان يحارب لآخر جندي هندي يؤكد هذا القول احصاءات قتلى ومشوهي الحربين العالميتين الاولى والثانية . كما انه يمنع اقامة اية صناعة وطنية ، فكشمير التي انحدرت منها اسرة اقبال كانت تشتهر بصناعة يدوية فريدة ، هي الاقمشة الحريرية الدقيقة ، فقطعت ابهام كل يد صانعة فقضي على تلك الصناعة ولم تبق منها الا نماذج في المتاحف لتدلل على طغيان الاستعمار وجبروته ، ناهيك بما كان يلاقيه الاحرار من اضطهاد وتعذيب ، فأثر ذلك في نفس اقبال الذي ادرك ان المستعمرين لا يسودون الا في الجهل .

سمعت باسمه وانا فتى لم يتجاوز عمره عشرا من السنين ، حين عقد اول مؤتمر اسلامي في القدس برئاسة سماحة الحاج امين الحسيني عام ١٩٣١ حيث كان اهلها يرددون اسماء شخصيات عربية واسلامية قدمت من كل قطر قاص ودان ، وذلك لبحث وسائل العمل لانقاذ الديار المقدسة من الانكليز الذين جاؤوا لتهويد فلسطين .

وقد ظل اسمه عالقا في ذهني الى ان وعيت فعرفت بعدها بعض الشيء عنه من مجموعات الصحف والمجلات التي كانت محفوظة في مكتبة المسجد الاقصى ومما كتبه عنه وترجمه له استاذنا المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ، وقد لفت نظري ما قرأته من خطاب له في ذلك المؤتمر قوله :

« ان مستقبل فلسطين متوقف على وحدة العرب وعلى هذه الوحدة يتوقف مستقبل الاسلام والسلام » .

وفي موضع آخر يقول ساخرا من مزاعم اليهود الذين يدعون ملكية فلسطين لانهم سكنوها في قديم الزمان :

نغمة الحب

لا تقولي استعبد القلب هوانا	نحن لولا الحب لم نخلق كلانا
لا ولا كنا دعاء في صلاة	رددتها في خشوع شفتانا
انه الحب الذي صيرنا	مهجة حرى ووجدا وحنانا
جمع الله عليه شملنا	وبه نحيا سلاما وأمانا
منحة الله الينا فاحذري	ان تداري اليوم ما الله حبانا
انه عالمنا من ريق الاحلام صغناه ورودا وجنانا	
قبلنا لم يك احباب ولا	كان هذا الكون للحب مكانا
فأتيناه فأمسى روضة	بعد ان كان ركاما ودخانا
ومنحنا البلبل الفريد لحن الحب حتى صار يحكي عن لقانا	
فانظري كيف اصطفينا جنة	دون خلق الله ، والله اصطفانا
انه الحب الذي صيرنا	في عفاف الزهر معقودا لوانا
نحن بالحب غدونا حرة	انفسا منا وعينا ولسانا
كانت الدنيا ظلاما داكنا	فأتيناها فضاءت بروانا
ومضينا فاذا النجم لنا	رحلة والسعد يحدو بخطانا
انه الحب الذي صيرنا	اصفياء العشق والله هدانا

القاهرة — حسين خريس

« ولماذا لا يطالب العرب باسبانيا التي ملكوا زمامها قرونا طويلة وبنوا فيها اعظم حضارة عرفها الانسان !! » .

وهكذا تحققت نبوءة اقبال ، فبعد موته بسبع سنوات تأسست باكستان حلمه الجميل الكبير ، دولة مستقلة باسقة بقيادة الزعيم الراحل محمد علي جناح فلم تعد خيال شاعر ، ولكنها كانت فكرة عبقري حكيم آمن بها الشعب فاستجاب له القدر .

وتدور الايام فاذا بي ازور كراتشي عام ١٩٤٩ يوم عقد فيها اول مؤتمر اقتصادي بعد الاستقلال . وفي تلك الايام كادت الحرب ان تقع بين دولتي الهند وباكستان بسبب كشمير . والباكستانيون كانوا يؤيدون مطالب سكانها بتقرير مصيرهم باشراف هيئة دولية ، والهنود كانوا ضد هذا الراي خشية من نتائج الاستفتاء .

وكان الاستعمار الغربي الذي خرج من شبه القارة الهندية بعد استقلال هاتين الدولتين يحرك نار الفتنة هنا وهناك ، فالمندوب السامي البريطاني المقيم في كراتشي يؤيد موقف باكستان بتقرير مصير كشمير ، بينما صنوه في دلهي كان يشجع الهند على رفض تقرير المصير .. !!

في هذا الجو المحموم كثر الحديث عن اقبال في العاصمة كراتشي وعن آرائه في مقومات الدول ، وفي لقاءاتي المتكررة مع من عرفتهم من الشخصيات هناك اكتشفت ان الناس معجبون بشاعر باكستان العظيم الذي كان من العاملين من اجل بعثها وحريتها ، والمتطلع الى عالم انساني واسع الآفاق ، تسوده المحبة وروح التعاون ، يبدأ بوحدة العرب وتشع في جنباته حضارتهم في بلاد الشام ومصر والعراق والاندلس ، لتلتقي مع حضارات الامم الاخرى . يعزز آراءه هذه ما ورد في احدى قصائده التي ترجمها شعرا الى العربية الصديق الفاضل الشيخ صاوي شعلان من علماء الازهر ، اقتطف من ابياتها ما يلي :

يا ظل حدائق اندلس	أنسيت مغاني عشرتنا
وعلى اغصانك اوكار	عمرت بطلائع نشأتنا
يا دجلة هل سجلت على	شطيك مآثر عزتنا
امواجك تروي للدنيا	وتعيد جواهر سيرتنا
يا ارض النور من الحرمين	ويا ميلاد شريعتنا
ان اسم محمد الهادي	روح الآمال لنهضتنا
دوت انشودة اقبال	جرسا ايقظ فيه الزمنا
ليعيد قوافلنا الاولى	في المجد ويبعث امتنا

رحم الله اقبالا ، ومن حقه على باكستان والعرب والمسلمين ان يحيوا ذكراه وان ينهلوا العلم والمعرفة من آثاره ، وان يستفيدوا بل ويتعلموا من رده على ديكتاتور ايطاليا موسوليني غازي الحبشة الذي قال « ان من ملك الحديد فقد ملك كل شيء » فأجابه اقبال « ان من كان عزمه قويا كالحديد فهو كل شيء » !!

عمان — الاردن — جميل بركات

الرحيل

بقلم حسني سيد لبيب

قصة

الرحيل هــي الكلمة الوحيدة التي زعقت بها الشفاه . فالثلاثة تركوا آمالهم في القاهرة . ولا يربطهم بهذه البلدة الصغيرة سوى العمل . وما اقساه مــن عمل ! . احد الثلاثة ــ فؤاد ــ عين منذ خمس سنوات وترك في الزقازيق زوجا واولادا ثلاثة . امــا الاخران فقد كانا حديثي عهد بالمهنة ، ولا تتجاوز خبرتهما شهور العام الدراسي التسعة .

فلــول الجيش المنسحبة تمــزق القلوب . صرخ حسن حين لمح جنديا يقــع على الارض اعياء ولا يــزال محتضنا مدفعه ، فرحلــة الصحراء قاسية .. ومــا اقسى ان يتراجع الجندي ، ومــا امر هذه الخطوات المشلولة ! . صراخ حسن تحول الى بكاء . تهالك في موضعه وهو غير مصدق لما حدث . هل انتهينا ؟ .. أننسحب الى غرب القناة ؟ ! .

زميله فؤاد يحبس انفعالاته ، ولا يبدو على ملامحه الا الغضب . يصل اليه صوت المأمون ناصحا بالرحيل .. صرخ حسن :

ــ انرحل ؟ .. انها اكذوبة . انا لا اصدق المذياع . ان العالم الذي حولنا موبوء بالاكاذيب . تسعة اشهر عشتها في « القنطرة شرق » ، تألمت لفراق اهلي ، لكني احببت هذا المكان ، واحببت التلاميذ ، وعلقت آمالا كبارا ان استقر هنا .

ان الثلاثة ــ منذ بدء العدوان ــ يعيشون في بيت ناظر المدرسة ، حيث دعاهم ليؤنسوا وحدته . فليس في البيت زوجة او اولاد . انه يعيش وحيدا . رضي بمهنته واحب المدرسة وتلاميذها ، واحس بانه اب كبير للتلاميذ والمدرسين على السواء .

ــ لا بد ان نرحل .

همس فؤاد بالعبارة وهو يتظاهر بالاتزان .

ــ والاستاذ عزيز .. انتركه ؟ .

ــ يرحل معنا . اذا اراد .

وخيم الصمت الكئيب ..

شرد حسن . لم يحاول ان يتدبر امرا ، فقد جمد تفكيره .. قال لهما :

ــ في الظلام الكئيب ، كنا نتهامس عن مصير الحرب وما ستسفر عنه .. اما الناظر ، فقد كان يحلم بالعزف على قيثارته الحبيبة ، وكان يلعــن الظلام .

هبط المأمون الى الطابق السفلي ليخبر الناظر بعزمهم على الرحيل . الفاه يطهو طعام الغداء ، فوجم .. اقتعد كرسيا ، وراقبه لحظات ثم قال :

ــ حقا نحن في حاجة الى الطعام ، شكرا يا استاذ عزيز .

دخل احــد الجيران في عجلة ، صائحا :

ــ حضرة الناظر ، الا ترحل ؟ ! .

ابتسم الناظر في هدوء ، ثم سأل :

ــ ارحل عن الدنيا ؟ .

ــ عفوا يا سيدي .. عفوا .. امد الله في عمرك . اقصد ان نرحل الى حيث الامان . الم تسمع النبأ المفجع ؟ . جيشنا ينسحب .. لماذا نبقى ؟ .. انبقى للمذلة والهوان ؟ ..

انبقى لنصير لعبا تحركها جماعة من الحاقدين ؟ .

اجابه الناظر بنظرة صامتة . هبط حسن وفؤاد وتبادلا مع الرجل القادم كلمات غير مرتبة ، يشوبها التوتر . وفي كثير من الاحيان لا تعبر الكلمات عن رغباتهم الحقيقية . واملى انفعال اللحظة امرا غــير طبيعي بالنسبة لهم . عزم الثلاثة على الرحيل ، بعد احتدام المناقشة .. اقتنع كل منهم الآخر بسلامة هذا الموقف .. وحين حاولوا اقناع الناظر ، سألهم على الفور :

ــ الا تشعرون بالجوع ؟ .. لقد تم اعداد الطعام .

تحمس حسن لكلماته ...

ــ نعم يــا استاذنا .. نشعر بالجوع . هيا نتغدى . ان الساعة تقترب من الرابعة ولم نتناول شيئا منذ الصباح .

جلسوا الى المائدة . التهموا الطعام في عجلة ، احساسا منهم بانهم على اهبة الرحيل . وتناول الناظر الطعام ببــطء ، وكان يتملــى في وجوههم الحزينة .

وبعد تناول الطعام ، كانت هنالك مهمة شاقة تنتظرهم .. هي اقناع الناظر بالرحيل . صاح حسن :

ــ سيدي الناظر ، لا بد ان ترحل معنا .

كان الموقف دقيقــا ، لكنهم لــم يتدبروا الامــر جيــدا .. فالموقف عصيب ، والوقت لا يمهلهم ، والمصير يتحدد بتصرفهم الآن ..

انتحى المأمون بالناظر جانبــا ، وقال له في مودة :

ــ سيدي الناظر .. انا حائر بين حبين ، حبي لــك وحبي لزوجتي واولادي الثلاثة . اذا بقيت هنــا فسأحرم منهم ، واذا رحلت فسأحرم منك . لهذا ارجوك ان توافق ، ان تصحبنا في رحلة لا نريدها ؛ لكنها مفروضة علينا .

اجابه الناظر :

— اذا رحلت معكم فساحرم من البيت ، والبيت عالمي البهيج ، واذا بقيت فساحرم منكم ، وانتم اصفيائي .. فماذا اختار ؟ .

ازيز الطائرات يؤلم الآذان .. ودوي المدافع يزعجها .. ونذر الشؤم تتكثف في اخيلتهم ، تلتهب في عروقهم، تتصاعد ابخرتها الى عقولهم .

ماذا يفعلون ؟ .. الاهل في القاهرة قلقون ، ولا بد من الرحيل ! .

ودعوا الناظر بالقبلات والدموع ، ثم ساروا في جنازة بلا نعش .. خطوا خطواتهم المتثاقلة صوب القنـاة . ساروا عشرات الامتار ثم جمدوا في اماكنهم ، تسمروا في الارض .. التفتوا ناحية البيت كأنهم يطمئنون عليه .. التقت عيونهم الحائرة بعيني الناظر الدامعتين . اشار اليهم كي ينتظروا ...

وانتظروا .. انتظروه طويلا .

تهيأ الناظر للرحيل . كان يودع البيت .. لثم قيثارته الصامتة ، وخيل اليه انها تشجيه بانينها . احس وهو يلثمها بأنغام حزينة تنوح بها . كان يدخل غرف البيت ، يتملى فيها ، ثم يحكم رتاج ابوابها . واخيرا ، اخذ يتمشى في حديقة البيت منعما النظر فيما حوله من خضرة وازهار .. ثم خرج، واغلق الباب الخارجي باحكام. وضع المفتاح في جيب سترته في حرص شديد وهو يحس بأنه قد افتقد شيئا غاليا . لكن احساسا طاغيا اكد له بأنه سيعود في القريب، وتحت سيطرة هذا الاحساس قرر الرحيل ، لكنه لم يحمل معه شيئا من ملابسه او حاجياته .

تحرروا من وقفتهم الصامتة حين لمحوه مقبلا . تهللت اساريرهم ، واحسوا بالاطمئنان . ان الناظر لن يتخلى عنهم ، لن يتركهم . انه ، اثناء الدراسة ، يرشدهم ويعمل على راحتهم ويذلل ما يواجهونه من صعاب . وفي ايام المعركة الماضية دعاهم للاحتماء في بيته ، وشملهم بعطفه .. وها هو ينوي الرحيل من اجلهم ، فاحسوا به ابا حانيا يتنازل عن الزم حاجياته في سبيل راحة ابنائه .

عانقهم من جديد . وحين عاودوا المسير ، تمهل الناظر قليلا ، وتملى النظر الى بيته .

بدات الجنازة الصامتة المسير . احاطوا الناظر واحتفوا به .. تحرروا من الصمت ، وتبادلوا الكلمات عن الاهل والقلق الذي يؤرقهم . ازيز طائرة نبه الناظر من شروده ، تتبعها بعينيه ..

الطائرة تحوم حول بيته ، يا لها من طائرة وقحة ! . الطائرة تعلو وتهبط ، انها الآن فوق البيت ، أتريد ان تنسفه ؟ ! . يا الهي ! ... كيف ذلك ؟ ! . توقفوا عن المسير وتابعوا معه النظر والترقب . الطائرة لا تختفي الا لتعود ، فاحس بقلق بالغ .. همس :

— نسيت قيثارتي ..

وقفل راجعا ، بينا قلوبهم تخفق خشية وخوفا .. وترقبوا هذه اللحظات الحاسمة حتى يعود اليهم . تعلقت ابصارهم بالبيت ، وتوقعوا مجيئه من فينة لاخرى .

اختفى قرص الشمس في كبد السماء ، وزحف الظلام وانتشر .. لكن صورة البيت بدت لهم واضحة ، وكأنه يتحدى الظلام الزاحف .

تناهت الى آذانهم انغام القيثارة الحبيبة . همس المأمون :

— عاوده الحنين الى العزف .

وقال حسن :

— انها انشودة الرحيل ..

وسأل فؤاد :

— هل يعود ثانية ؟ .

ولم يتلق جوابا . وظل السؤال حائرا بينهم . ولا يجرؤ احد منهم على ان يجيب . فقط ظلوا يترقبون عودته. ان الظلام يخيم على المكان ولم تعد تستبين لهم حدود المرئيات .

اخذ حسن بروعة الانغام ، شنف اللحن اذنيه ! . وتبدى له وجه الناظر مضيئا وسط ظلام قاتم . احس بأمل حلو يزغرد في اعماقه .. صاح :

— ليست انشودة الرحيل .. انها ، يا رفاق ، انشودة العودة .. اجل .. هي انشودة العودة .

وفجاة ، روعهم انفجار هائل اختلط صوته بانات القيثارة ، فجمدوا في اماكنهم .

اهتز الوجه المضيء في مخيلة حسن ، وضاعت الصورة في ضبابه اساه ، اختفى الوجه المضيء ، وخمد النغم الحبيب .

هدأ الانفجار المروع ، وتلاشى الصوت المدوي ، وعاد السكون يخيم على المكان . النغم الحبيب لم يعد يشنف آذانهم . تبدد النغم وضاع في السكون الابدي .

بكى حسن وتمزقت الكلمات على لسانه ، وتوترت اعصاب المأمون ، وخرج عن وقاره واحتدت كلماته .. بينا ألقى فؤاد نظرة ثاقبة على بيت الناظر . وبرغم الظلام الحالك ، فقد تيقن من ان البيت اصبح اثرا بعد عين ! .

انتشلوه من تحت الانقاض ، ووسدوه الثرى . ثم استداروا في اتجاه القناة ، وواصلوا السير في جنازة صامتة . غاب قرص الشمس، وخيم الظلام ، لكنهم يأملون في ان يسمعوا انغام القيثارة من جديد . جالت عيونهم في الظلام الحالك ، وتحسسوا الطريق الى ضفة القناة ! .

ما اشقى عبور القناة الى الغرب ! .. ما اشقى الرحيل ! ..

القاهرة — حسني سيد لبيب

الاستاذ العامودي والصحافة

بقلم ابو حسام

* * *

فرحت حين علمت ان الاستاذ الكبير محمد سعيد العامودي قد ترك عمله الصحفي ، ليتفرغ الى جمع آثاره الادبية على مدى اربعين عاما او تزيد ، لان الذين تحملوا رسالة الصحافة منذ اربعين عاما فاكثر كانت لهم مثل ادبية لا تجد الرواج اليوم ، وانا اعرف من هؤلاء المجاهدين الصابرين اعلاما بررة كالاساتذة محمد فريد وجدي واحمد حسن الزيات واحمد امين والبير اديب وعبد القدوس الانصاري ومحمد سعيد العامودي ! اعرف انهم عشقوا الصحافة لانهم ادباء باحثون يملكون نعمة البيان الجيد ، والتفكير النزيه ، ويضيئون الى شمائل عالية من الخلق النزيه ، فالاستاذ منهم في مجلته كالاستاذ في الكلية الجامعية يوجه ويرشد ويختار الاجود وينفي الرديء ، وقد تأتيه المقالة الناقصة فيرسل الى صاحبها ناقدا وطالبا بعض الاضافات او حذف ما يجب ان يحذف ! وقد تأتيه مقالة من كاتب مغترب في قطر نازح وهي تحمل من الافكار ما يجب ان يذاع ، ولكن الاسلوب التعبيري مهلهل ركيك ، فيحاول رئيس التحرير ان يصوغها من جديد ، مدخرا تعبه عند الله ، رايت هذا بنفسي مرات ومرات حين كنت ازور بعض هؤلاء الكبار ، وقد يجد الواحد منهم بحثا يحتوي على حقائق تاريخية او سياسية او ادبية ليست مما يعلم ، فيضطر الى مراجعة المصادر كيلا يقدم للقارىء شيئا لا يتاكد صوابه ! وقد يأتيه مقال يحوي تهجما على بعض الشخصيات الماضية او الباقية ، فيضطر الى ان يخفف اللهجة بما يضيع الكثير من وقته في الزيادة والحذف والمحو والاثبات ! ويظهر المقال للقارىء وكل فضله يرجع الى الكاتب . اما جهد الفدائيين من امثال الاستاذ العامودي فقد ستره الايثار بألف نقاب ! . .

فرحت باعتزال الاستاذ العامودي ميدان الصحافة بعد جهاده الشاق ورئاسته لأكثر من ثلاث صحف ذات هدف واعباء ، اذ انه قام على تحرير جريدة صوت الحجاز ثم على تحرير مجلة الحج ثم جمع اليها مجلة الرابطة ، كما اسهم في تأسيس لجنة احياء المخطوطات المكية ، ولجنة النشر العربية بمكة ، وعمل في ادارة الطبع والنشر مرؤوسا ورئيسا ، هذا الى مشاركاته السياسية في مجلس الشورى بالمملكة وما على مستواه من المجالس ، وكل هذه الاعباء جعلت انتاجه الخير متفرقا في انهار الصحف وجداول المجلات ، ونقصد بالانتاج انتاجه الرسمي الموقع باسمه . اذ انه ظل يتحدث عن الكتب الجديدة قرابة اربعين عاما حديثا خافي التوقيع ينم عنه بمزاياه الاسلوبية التي يعرفها قارئوه دون ان يحرص على تسجيل اسمه تواضعا واستتارا ، فاذا علمت اليوم انه قد تفرغ الى جمع هذه الزهور المتناثرة في رياض متباعدة فيجب ان افرح .

ان رئيس التحرير في المجلة الذائعة كالتاجر في بعض نواحيه ، فهو حريص على رواج المجلة وذيوعها لا ليضم الى جيبه الذهب والفضة بل ليسعد بانتشار ما يريد من افكار يدعو اليها ، وينفسح المجال للتعبير عنها ، ورئيس التحرير قد يكون حاسم الاشارة ، صعب المراجعة كالاستاذ احمد امين ، فانك تعطيه المقال فيقرؤه ثم يدعوك الى القائه ليحاسبك على كل ما تضمن ، اذكر اني وجدته يناقش زملاءه في لجنة التأليف والنشر حين تقدم اليه بعضهم بمقالاتهم مناقشة جادة منصفة ، وهم يعلمون عدله وانصافه وشدة تحريه للحقيقة فيقبلون منه كل نقاش ، ويدعونه الاستاذ الرئيس ! كما ينزلون على رايه في مودة واخلاص اذا لم يستطيعوا اقناعه بما كتبوه ، وحين دعاني لمناقشة مقالي عن (جورجي زيدان) وانا طالب مبتدىء بكلية اللغة العربية ، جلست جلسة التلميذ المهذب ، اذ ما عساي ان اصغ واساتذة الجامعات يذعنون راغبين ! وكأنه راى تهيبي فأوجز واشار ببعض الحذف والزيادة فاستجبت ! هذا رئيس التحرير الصريح المجابه ، اما ذوو الدماثة المفرطة كالاستاذ العامودي فما اكثر ما يتحملون ! لقد كنت اراسله مدى خمسة عشر عاما فاكثر عن كل ما ينشر في الرابطة والحج والتضامن ، وكنت اعترض اعتراضات سافرة على بعض المقالات ! فيجيئني الرد المسهب الطويل من الاستاذ عن كل ما وجهت من نقد ، ثم اتيح لي ان اجالسه واناقشه فعلمت ان سعة الصدر وصفاء النفس لديه وجمال الحياء مما يقف دون رغبته المثالية في النشر والنقد والتصويب ، ولله كم لاقى من صعاب ، ان الكتب الجديدة لتفد اليه شهريا بالعشرات ، وحسه النبيل لا يجيز له ان يترك كتابا دون قراءة وتعليق ، ولا بد ان يوجز ليتسع باب الصحف في المجلة لاكثر من كتاب ، وقد يضيق فضاء مجلته عن هذه الكتب جميعها فيكتب في الجرائد المكية كالندوة او يذيع عن بعضها في اذاعة جدة ، او يخص مجلة المنهل ببعض التعريفات النقدية وصاحبها الاديب الكبير عبد القدوس الانصاري صديقه الحميم ، اذ تآخى الاديبان مؤاخاة نبيلة لحمتها الخلق وسداها الادب ، حتى اصبحت مودتهما مضرب المثل في الصفاء والترفع والايثار ، وكان الظن بهؤلاء الذين يخصهم الاستاذ برعايته المترطة الناقدة ان يحمدوا له هذا الصنيع ، ومنهم من يعرف الفضل لصاحبه فيشكر ويزهو ، ومنهم من تدفعه المراهقة والاثرة الى العتاب لانه لم يخصه بمقال متسع ، بل شارك معه سواه ! وقد يتعرض الاستاذ العامودي في مقاله الى نقد مهذب يرسله رقيقا حلوا وكانه

يعاتب ! فيجد من المنقود شراسة ولجاجا ! والرجل صابر على ما يلقى ! واكبر متطلبات الصبر لديه ، حين يجد بعض المدعين يمطرونه بالمقالات السطحية ، ثم يتعجلون نشرها ، فاذا ابطأ قليلا حاصروه في مكتبه وسعوا الى منزله ووقفوا في الطريق له غاديا رائحا ، لان المجلة تكافىء وتمنح ، فلا بد ان تكثر المقالات هاطلة دافقة كالغيث ، وفي هؤلاء من هو فرح بمقامه العلمي في المدرسة والجامعة ، ويظن ذلك كافيا لقبول المقال ونشره على وجه سريع ! والاستاذ العامودي يقرأ ويصبر ويتحلم حين ضاق الصدر بالحلم على من يكتبون له المقالات عن عمر وابي بكر والمتنبي وخالد بن الوليد ثم لا يضيفون جديدا غير ما يعرفه طلاب المدارس الثانوية ، وهم بعد اساتذة رسميون !! ايـن الاستاذ احمد امين اذن لهؤلاء !! كم كنت انظر الى الاستاذ العامودي بوجهه الباسم ، وعينه الهادئة وانا اعلم مـا يصطرع في حناياه من غضب ، على هؤلاء المترامين دون رعاية لحق القلم ! ثم اوازن بين انسان رقيق عف يدفع السيئة بالحسنة ويطوي الصدر على مستكنه ، وبين انسان صارم جاد يضع كل كاتب في مكانه الطبيعي ، ويواجه بالحقيقة دون اكتراث ، لا بد ان العامودي قد تحمل من هؤلاء الوصوليين ما يوهي الجبال وقد آن له ان يستريح .

واذا كان الزيات واحمد امين وفريد وجدي والانصاري يوقعون المقالات بأسمائهم في كل عدد يصدر او في اكثر ما يصدر من الاعداد فان البر اديب ومحمد سعيد العامودي وجدهما ممن عرفت ، لا يحرصان على التوقيع ، اذ تظهر المجلة خالية من بحوثهم الموقعة ، مع ان كليهما قد قرأ كل سطر ، ووقف عند كل نقد ، وكتب المقالات دون توقيع ، وكان من اليسير عليهما ان يختصا بالافتتاحية ، ولكن فضيلة الايثار تدفعهما الى تشجيع من يمدون الصحيفة بالمقالات ، وهو عمل له رصيده الخلقي الباهر ، في عالم كثر فيه الادعياء ، الى حد رأينا فيه مقالات لبعض رؤساء التحرير يكتبها غير اصحابها الرسميين وقد تحدث الاستاذ محمد علي غريب في مذكراته عن نفر من هؤلاء ! ولا نريد ان نشهر بأحد حتى نعيد ما قال ، ولكننا نقرن هؤلاء بأمثال العامودي والبر اديب لنتأكد ان الزمان على امتداده لا يخلو من فدائيين ، يعملون ويعملون في خفاء وصمت ! ليرضوا نزعة المثالية في هدوء قانع وصبر جميل .

وانا كقارىء للاستاذ العامودي ارى ان انتاجه يمتد الى ثلاث شعب ، اولاها الشعبة النقدية ، وفي مجالها الخصب تدفقت آثاره الكثيرة ما بين محاضرات في المؤتمرات الادبية ، او مقدمات لبعض الدواوين والكتب ، او عجالات في الصحف والاذاعة عما صدر من المطبوعات ! ومن واجب الاستاذ على نفسه ، ان ينهض الى جمع ما كتب واذاع وحاضر في هذا المجال ، واذا كان لي رأي اود ان يضعه موضع الاعتبار ان قبل ، فهو ان ينشر ما طواه من النقدات لان الفائدة حينئذ اعم واقوى ، وانا لا ادري لم يغضب المنقود وقد لمس اخلاص الناقد واهتمامه الجاد ، ان اقدام اديب كبير على نقد كتاب علمي او ادبي هو اعتراف صريح باهمية الكتاب ومؤلفه ، اذ لو كان المؤلف ساقط الاعتبار لدى الناقد ما اقدم على نقد كتابه فليعلم هذه الحقيقة من يضيقون بالنقد ، ولا ينظرون غير الثناء المتد في غير طائل ، اما الشعبة الثانية في انتاج الاستاذ العامودي فهي الشعر لانه ابتدأ حياته الادبية شاعرا ثم اضطر الى الكتابة النثرية وفاء بحق ما يقوم عليه من الاعمال الصحفية ، وله قصائد ذائعة ، بعضها مقرر في سنوات الدراسة الثانوية بالسعودية ، كما انه اصدر رباعيات شعرية تنحو منحى الحكمة المعرية ، واذكر اني كتبت بحثا عنها في جريدة الدعوة بالرياض منذ سنوات ثم رأيت ان اضيف اليه مقدمة ترسل بعض الضوء على مقرراته الادبية ، وكنت في زيارة الاستاذ بمكة فأعطيته المقدمة مع البحث كي يبعث بهما الى مجلة المنهل ، ثم مرت الايام دون ان يفعل الاستاذ ، وليست لدي مسودة لما كتبت ، واني لارجو ان يبحث عن حديثي عن الرباعيات مقدمة وعرضا ثم يبعث به الى مجلة الاديب بلبنان او الـى مجلة المنهل بجدة ليجد موضعه الطبيعي ، كيلا يسألني يوم القيامة عن اهماله فيصبح مع المؤودة بأي ذنب قتلت ؟

اما الشعبة الثالثة فهي اتمام تحقيقه لكتاب (اعلام المكيين) وقد رأيت بعض مسوداته وطالعتها بشغف ، على ان هذا كله لا يجيز للاستاذ ان يقطع سلسلة بحوثه التاريخية عن (الصحافة الحجازية) حيث قام بابتداءات رائعة كانت ركيزة قوية لما تلاها من الاعمال ، ومثل الاستاذ في عمله الحافل الممتد الى نصف قرن تارنا فمحررا فرئيسا للصحف بالمملكة العربية السعودية يجد في ذاكرته من دقائق الانباء وتفصيل الاحداث ، واتجاه الشخصيات ، واستقامة الدروب حينا والتوائها حينا آخر ، اقول ان مثل الاستاذ جدير بأن يفض بما لديه ، وهو فرض عين عليه ، لان نظرته موضوعية هادفة ، وخلقه رحيم متسامح ، واحاطته شاملة ممتدة فهو اجدر بتاريخ الصحافة في المملكة من كثيرين لا يحملون عناصره النقية وهدوءه الصبور .

على اني — شهد الله — لا اقصر اطلاع العامودي على تاريخ الصحافة في وطنه الخاص ، بل امتد به الى كثير من ربوع الضاد اذ رصد نفسه لقراءة الانتاج الادبي صحفا وكتبا في مثنى ديار العروبة ، وبخاصة في مصر ولبنان ، منذ العشرينيات من هذا القرن ، وكم طال مجلسي معه ، والحديث متسلسل عـن ادباء العصر واعلامه ، وعن الاتجاهات المتعارضة والمتفقة لدى زعماء الفكر العربي ، وقد كان في زيارته الاخيرة للقاهرة في رمضان سنة ١٣٩٧ هـ كلفا بالتنقيب عن آثار ادبية ودواوين شعرية ظهرت فيما

حبي الك الموج

*

ما لي وما قيل ان قالوا فقد صدقوا — حبي الك الموج لا يثنيه ما رشقوا
كنا كتمنا هوانا عن خواطرنا — لكنما السر من عينيك قد سرقوا
ما ذنبي اليوم ان طافت حكايتنا — بين الحواري في الاهداب تلتصق
فحولونا على كره وما عمدوا — هديا بدا في دجى العشاق يأتلق
كأننا شمعة صلت لمن سهروا — تنير ليل النوى ، في الصمت تحترق
تزهو فيرنو لها من ذاق نبعتنا — ويستجير بها من شفه أرق
ما ذنبك اليوم ان صارت حكايتنا — سفرا من الحب.. والافواه تختلق
فعللي القلب لا تأسي لما ذهبوا — ولا تبالي بمن في حقدهم غرقوا
فحسبنا اننا في الحب منزلنا — فوق النسيمات يلهو حيثما الشفق
البدر نادلنا والفير في ظمماء — والروح خمرتنا مدرارها غدق
الشاربون كؤوس الصفو مترعة — في جفنه الليل في الاصباح نغتبق
الصادقون لعهد الحب ما نكثوا — الصامتون عفافا ان هم نطقوا
الراحلون لدنيا كيف يعرفها — عواذل لو بها يدرون لاستبقوا
دنيا بعثنا سناها فاستبيح لنا — فردوسها فهوانا حولها افق
دنيا هي الحب يا ليلاي فابتسمي — ولا تبالي بمن في صبحهم غسق
لا يرجم الناس الا من بها ثمر — ولا يشمون الا من بها عبق

عبد اللطيف مهنا

بين الحربين العالميتين ، وقد طلب البحث عن مجموعات محرم وعبد المطلب والكاشف ونسيم وولي الدين يكن وعبد الحليم المصري دون طائل ، اذ تبدلت الوجوه ، واختلفت دورات الزمن هبوطا وارتقاء حتى تصدر للشعر من لا يقيمون عروضه ، واكثر من يقيم العروض قصاراه ان ينظم دون روح :

اما الخيام فانها كخيامهم — وارى نساء الحي غير نسائها !

وقد سألني مشتاقا عن مجلة الاديب متى تصدر ؟ ولم يكن المسؤول بأعلم من السائل ؟ ثم كتب الي يقول انه قد قرأ اعلانا عن صدورها ويرجو الحصول عليها بأي ثمن ، لانها لا تباع في مكة كالعهد قبل الدمار الرهيب ، ولعل الرياح تهب رخاء فتصل السفينة بالاديب الى شاطىء النجاة بعد ما كابدت من اهوال .

هذه تحية عابرة اقدمها للكاتب الكبير الاستاذ العامودي راجيا ان يذكر على البعد تلميذه الودود .

ابو حسام



ابراهيم عبده الخوري

من حكايات القرية

بقلم ابراهيم عبده الخوري

* * *

من صغري وانا مغرم بالحيوانات الداجنة . المرحوم والدي — طيب الله ثراه — جاء لي بالدجاج والارانب والحمام والخراف . وكان يهتم بها كرمى لعيني وحيده انا . واثناء دراستي الداخلية في معهد عينطوره ، طيلة ثماني سنين متواصلة ، كانت رسائله الي تتضمن ، فيما تتضمنه ، تطمينات عن سيرة حيواناتي .

وكبرت ، وكبر حبي لها . حتى اني عندما قررت تمضية الصيف ، مع العائلة ، في الجبل ، فتشت عن قرية ما زال فيها الفلاح اللبناني سعيدا بحياته ، قانعا برزقه ، منشرحا بحيواناته ، معتزا بمعطياته . فاذا بـي احط الرحال في « شحتول » قرية مي زيادة ، اديبة الشرق ، وهي منبسطة على اقدام ثلاث تلال ، واستأجر منزلا عند ابن « العم بولس » الفلاح والمزارع الذي جاوز السبعين من عمره ، وكأنه في شرخ الشباب .

و « العم بولس » ، كما استنتجت بعد قليل وقت ، مسبع الكارات حسب القـول المتداول . يسترسل في ادعاءاته ويتباهى بحيواناته وبعنترياته ، والطربوش لا يفارق راسه عندما يقصدني لاحتساء القهوة وتزويدي باخبار القرية العتيقة . وقد احببته فقدرته على الرغم من انني لم اقبض جديا كل عنترياته في القول والعمل .

لماذا احببته فقدرته ؟

« العم بولس » ، فيما مضى ، كان معلم عمار . ومنذ سنوات ، وبعدما ترك مهنة العمار لابنيه ميلاد ونبيه يشذبان الصخور ، وينحتانها ، ويبنيان بحجارتها منازل اللبنانيين في الجبال التي تناطح النجوم ، ارتد الى الارض — منبت الكرامة — يفلحها ويزرعها قمحا وخضارا فتعطيه الخيرات ، ويأتي بالدجاج والبقر والماعز يربيها ويعلفها فتقدم له الحليب واللحم والبيض والسماد .

لم يكد يمضي اسبوعان على وجودي في القرية حتى هتف « العم بولس » في صبيحة يوم ضاحك : « وجهك خير علي يا بو عبده . فما ان حللت بيننا على الرحب والسعة حتى البقر «صبحى» ولدت «عجلتين» اطلقت عليهما اسمي « نجمة » و « عيواه » .

بشرني « العم بولس » بالحدث السعيد عنده ، وكانه على علم مسبق بحبي للحيوانات الداجنة . واقول بالحدث السعيد لان البقرة نادرا ما تلد توأمين . ولم يمض شهر حتى ولدت بقرة له ثانية « عجلة » اسماها « رمانة » .

ويفاخر حتـى الوله ببقراتـه وماعزه ودجاجـه ومزروعاته . يرى في بقراته مزراب حليب . ويؤكد لك انه اكبر مالك بقر في المنطقة . وكـل المصطافين في القرية — وكانوا يعدون على الاصابع — يشترون مـن عنده الحليب . « ولولا بقراتي الحلوب ما كان احد في القرية يحصل على رطل حليب » .

دائما يغني على ليلاه ، ويتفاخر بأمجاده السابقة والحالية . وانا ، وان لم اعترف بأمجاده هذه ، قدرت حياته الحالية ونشاطه المتزايد . وفي هذا الصدد اختلفت مع ابنه نبيه الذي يطلب دائما منه ان يبيع البقرات والماعز ويكتفي ببقرة حلوب واحدة ، ويخلد الى الراحة ، فقد كفاه عملا متواصلا يبدا عند صياح الديوك ، وينتهي عندما يأوي الى فراشـه بعدما يكون قد نسي ، مرارا ، اطعام الحيوانات او ارجاعها الى زرائبها من المراعي .

انا مـع الفلاح اللبناني يزرع القرية حبا ونشاطا وعافية فتنبت له الخيرات . وانا مع الفلاح اللبناني يعيدنا الى اجواء الطبيعة الخصبة ، يضربها بمعوله ، ويزرعها بسواعده ، ويفلحها بقلبه ، فتعطيه طعام البقاء . وانا مع الفلاح اللبناني يربي الحيوانات ويكثر منها . ومن هذا المنطلق يردد « العم بولس » دائما امامي : « ما الخسارة اذا كنت مغرما بمزرعتي وبخضاري .. انا المالك سعيدا في قريتي ... » .

ويسترسـل في ذكـر انواع الخضار التي زرعها في ارضه وارض الغير (وارض الغير يعتبرها ملكا لديه في الوقت الحاضر) . وكم تعتريك الدهشة عندما تطلب منه ان يبيعك من هذا الصنف او ذاك ، وتجد انه لم يزرعه .

أنا وشعري

شعري عيون بالجمال تحدق ،
مـــن نبعه نهل الفؤاد سلافة
يفنـــي العوالم والزمان بلحظة
بين الورود.. مع النسائم.. تفتدي
في خـد فاتنة يداعب حمـرة
كالجدول الرقراق يمشي هادئـا
مـــن لونه اخذ النهار ضياءه ،
شعري شعور بالحياة وروضة
صورا اشاهدها بحس مرهـف
شعري عيون من منابعها سرى
يمشي مع الفقراء دون غضاضة
لا تحزنـــن اذا سمعت انينـــه
مـــن صحبة الايام سر وجوده
هذا شعوري مثل شعري صادق

وكواكب في افق عمري ، تشرق
وهـــج الحياة بكاسها يترقرق
في عالـــم الالهام روحك تفرق
اطيار روض في الربيع تزقزق
حتى ينـــال فؤاده مـــا يعشق
في خلسة بـــين النفوس يسقسق
من لحنه صوت الهزار يموسق
في عالم بيـــد المشاعر ، تورق
فاحيلها بالهمس عطـــرا يعبق
ذوب مـــن الافكار كـــان يؤرق
ويعاشر التعساء فيـــه المنطق
في جرحه ينمـــو شعاع ازرق
ودماؤه بـــدم الحقيقة تهـــرق
مـــرآة ذاتـــي حينمـــا يتدفق

حماه ـــ سورية

وليد حجار

وانـــا ارتاح اليه ، لا سيما عندما اجلس وإياه القرفصاء امام « نجمة وعيواه ورمانة » مصطحبا طفلي وليد يجر وراءه اعوامه الثلاثة . وكم من مرة غافل وليد امه وقصد البقرات و « عمه بولس » سعيا وراء الحليب الطازج .

وافرح عندما تدغدغ اذني اجراس البقرات والماعز لدى عودتها من المراعي في صفوف متراصة .

وانشرح عندما استفيق في الصباح على صياح ديكته واصوات طرشه كأنها الموسيقى المجنونة ، واغمض عيني في المساء على مقطوعات لشوبان او موزارت او بيتهوفن تعزفها زوجتي على البيانو . وهات يا « عمي بولس » من موسيقاك ؛ وخذ من موسيقى الخالدين ؛ ولتدم نعمك الى الابد .

وكما قلت ، فانه مسبع الكارات . في شهر ايار المنصرم ، كان موسم الحرير عنده مزدهرا . فدود القز امدته بشرانق حرير باعها بثمن مرتفع .

وصنع الدبس المستخرج مـــن العنب . وصنـــع المشروبات ، ومشروباته هي اجود واطيب مشروبات في القرية كما يدعي ، ودبسه ايضا . وعندما تذكر له ان صناعة الدبس والمشروبات في القرية معقودة اللواء لجاره وديع او لاخيه نعمةالله ، يرفض قولك هذا ويصر على انه كان وما زال سيد هذه الصناعة دون منازع .

والى جانب ما تقدم ، فانه مولع بالسياسة . ولا يمر مساء اصعد فيه الى « شحتول » المفناجة الا ويسألني عن آخر التطورات السياسية المستجدة على الساحة اللبنانية. وكله حماس وامل بعودة الالفة والمحبة بين المواطنين . وكأنه بذلك « خليفة » مي زيادة التي كانت مقالاتها في وطنها الام ، مبنية على التآلف والوئام والنصح .

هذه هي صورة « العم بولس » الذي ارتاح لرؤيته يحلب بقرة او يرعى عنزة او يغرس معوله في التراب . انه ، بكده وثباته وتعلقه بالارض ـــ على الرغم من بلوغه من العمر عتيه ـــ نموذج للفلاح اللبناني المتشبث بأرض الآباء والجدود ، يرويها بعرقه فتعطيه نعمها .

فدم هكذا ايها « العم بولس » . ولا بأس ان ادعيت ان امجادك تطاول السماء وان طربوشك يروي قصص الابطال . ولا غضاضة من ان تقول « انا وانا » ، ما دام حليب بقراتك وماعزك يزود ولدي عبده ووليد واحفادك بالغذاء ومقومات الحياة ، وما ظلت خضارك ـــ على قلتها ـــ تقلع من تربة غرستها بعرق الجبين .

واكرم بك فلاحا لبنانيا معافى !

ابراهيم عبده الخوري